

زمن بين الولادة والحلم

أحمد المديني

زمن بين الولادة والحلم

تأليف
أحمد المديني



زمن بين الولادة والحلم

أحمد المديني

الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبيث ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٩٦١ ٣

صدر هذا الكتاب عام ١٩٧٦.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٦.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.

جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الدكتور أحمد المديني.

المحتويات

٧	بحث الذاكرة المنسية
٢١	مقاطع ساخنة من ليالي الصقيع
٣٩	كوجيتو حافي القدمين
٦٥	أصوات في الهواء الخانق
٧٣	الإنسان حيوان مهووس الذاكرة
٧٩	الإنسان بين الجدران أو موت بلا تعويض
٩٣	نحن لما تكوّن فينا الجرح

بحث الذاكرة المنسية

تقهرني اللحظة، يقهرني أن تتلاشى النفس، يقهرني الأنا والآخر، تقهرني الدبابيس وهي تنغرس في الوجه، بين الساقين. تقهرني اللحظة أتوه في فراغها هنا، خوائها هنا، الذوبان اللاشيئي، ذوبان الصقيع بين بلدانٍ محصورة، يا حصار العالم، يا محاصري العالم المنسي، تعالوا أريكم كيف تملكون القدرة على محاصرتنا، كيف أنكم تسرقون البسمات الصافية وتزرعون بديلها ضحكاتٍ باليةً منتعلة. تعالوا عندي أنا من شددتُ كبد النور، حواصل الديكة البكماء، حناجر الفرسان المهزومين.

تعالوا أحكي لكم عني، عنه، عن الآخرين المهزومين العائمين التائهين بين الحلم واليقظة، بين الشك واليقين، بين أن تكون أنت أو ألا تكون، بين أن تبدد عتاوة الملامح المشوّهة أو أن تظل مجرد لحظة مهوشة محبوبة مبسوقة مع كل سعلة دامية، أو أن تكون إشعاع النفس الراقصة على بركان المطلق الذي تبحثون عنه يا جيلاً فارغاً إلا من السُّهاد والحسرات والدمعة الخرساء والبسمة المجانية والكلام المغموس في صحن السأم، وهو قد وُرع بين توءمة الحنين والذكرى اليابسة.

تقهرني اللحظة وأنا بين اللحظة. يقهرني أن يشف الكأس عني، عن قطرات تلتمع لتحقق في أنفي المجدوع، في ملامحي المنكمشة، في الوجه الذي دبَّ فيه الجذري، نحن السلالة المجذورة أيها الآباء والأجداد يا مسخ التاريخ.

يقهرني أن تشفَّ الكأس عن التماعاتِ بارقة، تسرق مني كل شيء وتعطيني سخرية، ترشُّ ذقني، أحتلب النشوة في الطين علّها تصعد عليها تشرق مرةً واحدة ويكون الخلاص بلا مباطلة، لكنها غادرة تلك اللحظة، لكن الغدر في كل مكان مفاجعة في اللحظة التي تهزُّني، تنفخ أوداجي، تتركني أنفخ في المزمار الأبكم، وأذري الأنفاس عبر جدران المدينة بالشمع،

والنفس محبوسة في قماقم، تمتد اليد لتفتح القمقم تسقط مبتورة، الثانية والثالثة، وتسقط جميعها والنفس دون ذلك حبيس برودة القماقم، حبيس الصدأ، حبيس الأيام المسلولة. ويحرُقني السؤال، هل تمتد الأيدي كلها، بله هل تتصارخ، يستوقف السؤال شعر الرأس. هل تمتد الأيدي كلها ومرة واحدة وتنهال على القماقم وتكسرها وتتلاشى البرودة المتخفية بين سخونة الأيدي المغلولة لتنعكس اللقطة الكبيرة على الشاشة. الآن الوجوه مشروخة، تأملوا الشروخ جيداً.

والنفس النغم الريّان ينتشر يدخل غيابة الجُب ينسرب عبر المغامرات، تنتقض السراديب، يخرج الإنسان من السراديب في محجزيه العنكبوت حول أنفه عنكبوت، والأقدام تآكلت وسط شبكة العنكبوت. هل تمتد الأيدي هل تشعلها حرائق هل ترتفع المداخل لتحفّر السماء هل يُولد في الدماء النبض البركاني وتحتوي الأفواه مشاعل ويسقط القزم والقزم بتوالي سقوط الأقزام تكون فرجتنا التي ما رأينا مثلها على مملكة الأقزام. الريح الصرصر تهُب ويقوم دجالهم وتنتفض الدنيا ولتتزعزع أركان الأرض.

ستكون فرجتنا يا ويح اللحظة المفقودة. الخلاص يا روح الأرض، الخلاص يا أغلال الزمن، الخلاص يا رءوسنا المغروسة في مستنقعات الخرافة والصديد.

الدم المسفوح على الجباه، الوجوه المدموغة بالطلاسم، القماقم المدموغة قذارات عهات زمن الضباب والمرجان، وملايين الأيام المقهورة، اللحظات الباردة، هل يسقط النسيان تقفز اليقظة تمسح الأيدي جباهنا المدموغة بقذارات عهات زمن الضباب والمرجان وملايين الأيام المقهورة والعباد المقهورين. تقهرني اللحظة، يقهرني أن أحتلب النشوة من كأس ناضبة، من وجه أبله يُهديني البسمة بالمجان.

يقهرني المجان.

يقهرني أن أنظر فلا أرى شيئاً البتة، لا ألح ذرة بريق، لا ألتفت لهذا أو لهنالك، تتكوّم الدقيقة فالساعة فالיום وترتد الأيام على بعضها وتدور الحلقات، وإذا الأشياء والآخرين هم الآخرون، وهل تستطيع أن تحقّق وتشرب بعينيك لا بفمك، أن تملأ بياض العينين، تغور الحدقتين، ترد الجحوظ ولتثبت النظرة، ولتتكوّن الرؤية جيدة ثابتة مضيئة فيها الضوء نابغة من الضوء.

الضوء يا عالم. أين الضوء؟ أموت مع أول خيط بريق من ضوء، من يُسعف الأكباد المحروقة، من يعيد القوارب الضائعة بين جزر البحار المبعدة حتى تعود من رحلات الضياع وتتنبس غربة جديدة، ولتنشر حمولات الأنفاس التي جاءت بها، التي اخترنتها من طوايا

السحب ولعلعة البروق، لتزرعها في العروق القنوات الجاري الحدقات، ولحظتها تنتظر أن تتشرب الشفاه القطرات ويعلق الندى بالأجفان وتمتص الشرايين نداوة رحلة المغتربين الباحثين عن الضوء في الأصقاع المنسية الباحثين عن الضوء بين الخنادق في قلب المغارة؟! متى يُؤلّد الضوء في المغارة؟

هل يشنق رأس الدجال في مغرب الشمس المعروقة، هل يأكل العنكبوت نفسه بنفسه وتندحر لحظات التيه الشيب الذي على المسام وتسقط الزعانف النتنة تسقط الجفون اليابسة، ويظل البلهاء يتحلقون وكل شيء يهرب من بين أيديهم، يهرب من عيونهم، يسقط في الأرصفة الموحلة، يتساقط الطفح الذي يملأ الأجساد، هل تسمعني أنت يا قاتلي، هل تسمعني أنت يا قاتلي يا مصّاص دمي، يا من جرعتني سُهاد سُهاد ليالٍ مغدورة، هل تسمعني، اللحظة لي والأمس في ذاكرة النسيان، الغد لي، لأبنائي، للأطفال، للوهج في حنجرتي ودماعي، يُسعفني الدماغ المتفجر، تسعفني اللحظة المحتقنة، يسعفني الإنسان الذي اشتعل بداخلي، تصفد العرق على الجباه الكالحة، هذه الجباه، تلك الجباه هي أنا اليوم وليس الأمس، هي التي تلتقط القطرات شفافها لتسقي ظمأ الحناجر اللاهثة، هل تسمعني يا مصّاص دمي، لحظة الحصار قريبة، والليل لم يُعدّ حبيس المغارة، إنه في كل مكان وأنت تنشره عبر الدروب زوايا الأزقة، على المخادع السئمة، لكن الليل في الداخل يُمحي، إنها الصحوة، إنها الاستراحة في ثقل الصخور من عسف الغيلان والأغلال، أرعشت الفرحة في العيون واختلجت نشوة اللقيا في الوجنات، وأنت ماذا تملك غير نشوتك المريضة. أنت ماذا تملك غير المعزوفات المكرورة يُديرها على أرغون العسف ألف قن وقينة. جولتُك انتهت والحلبة ألف فارس من القش مهزوم، ألف نجمة باهتة سقطت، ملايين من الدولارات مرمية. ماذا تملك الآن غير جزيرة غافية من الأحلام المريضة لتدفن فيها رأسك، حزنك، أمجادك المهزومة، لكن لن يمهلك أحدٌ يا سامعي، لن تمهلك المقصلة، هاتوا المقصلة يا ذوي السواعد الفولاذية، وليصرُخ العنف في كل مكان.

أسفروا عن لحاكم عاناتكم، ارفعوها، ألم أقل لكم إنها خواء لا نهاية له، وإنه ليس سوى الإنسان، سوى العنف مسار الإنسان في الأرض المُريلة الموحلة، سوى أن اللحظة هنا تسقيني، سوى أن الوجوه الميتة لم تذرني على الأرض الجرداء، لو أخذتموني، احملوني يا أيتام الأمهات القاحلات، أتنفس في أرحامكم الإنسان.

ليس سوى أن لحظة البكاء تعزّيني، تجرّديني من كل المساحيق، تمرّغني في العراء مع كل الذين ابتلت حناجرهم بالدموع من ألف عام.

ولو بكأسٍ تمتص الصدأ، ولو بكأس تشنَّج مفعمة تزيل الصدأ، ليس سوى أن اليبوسة الغيبوبة الحشيش الغفوة غياب الصحو تقهرني، تقهرني، يقهرني غياب الإنسان.
سقط الوجه المجذوم، أخرس النغم البليد وارتفع الإنسان، زغردوا، أرعدوا مع الإنسان، ولتملاً الفرحة كل مقلة، كُفُوا عن الدموع، كُفُوا عن البسمات المطعونة، كُفِّي يا جدران المدينة ... كُفِّي يا فيالق الجرذان عن أن تدور بنا تُلقي بنا في التيه، المتاهات انكمش طريقها، واللحظة الحاسمة أقبلت وأنا هو هنا كائن ولسنا أي شيء في مزبلة الأوغاد.
سقط رأس الدجال. الرأس مدورٌ مكورٌ منخور، لم تعد الأعماد صَدِئَةً، السيف بتَّار ... والرصاص يبلغ كل المسامع والأصداء في كل مكان، انفجار المفرقات في كل مكان، ولنُطلق المدافع بما لديها من ذخيرة.

طائر الرُّخ أقبل، عيناه قذيفتان، جناحاه طوقان، وريشه نتوءات البراكين المحمية.
أسفروا عن وجوهكم يا بني قريدة، هيا يا شبية أسفروا عن وجوهكم.
سمعتُ عن جدي ما سمعتُ، تمنى أن أروي عنه ما يروي وما لا يروي، سمعتُ عنه في الليالي الساخنة والباردة، سمعتُ حتى ملأ الصمغ أذني، وتخرَّقت الطبلتان، ودبَّ السأم في العروق والنخاع، تفتَّت النخاع من كثرة ما احتوى من أحاديث جدي الكريم، من كثرة ما تثاقلت عليه نزوات الذكريات، من كثرة ما دبَّ عليه القرُّ الصقيع، لم يُسعفني من لغوه شيء، لم يُبعدني عندما تساقط على رأسي من أنداء باردةٍ مرَّة.
سمعتُ عن جدي أحاديث الأولين، وأزيدك حتى الآخرين ولا غرابة؛ فقد كان رجلاً حَبْرًا عارفًا، سمع عن كل شيوخ عصره وشيوخ شيوخه، وحوى كلام الدنيا والآخرة، ويقول إنه كان مع الدعوة وصاحبها، وعاشر الصحابة والأولياء والصالحين، سمع عنهم ما تطفر له العيون، دهشة، وترتعش له الأبدان، وما لو سمعه المومن لتساقط جِلْدُه وخرَّ ساجدًا يستجدي غفران الرب خالق السموات والأرض.

بالليل الليل وبالنهـار.

الرجل الهرم والأسنان التي تساقطت، الشيب الذي غزا كل منطقة من جسده، الشيب يا ويل الليالي، يا حمى الأيام الباردة، الشيب في المفرق في الصدر حتى الدم، تخنَّز بدوره واختلجته شهقات الموت، يكاد ألا يجري، يكاد يجف مرَّةً واحدة، ما هو الحين الذي تنفر فيه عروقك؟ لا أحد يعرف كيف، بالضبط، لا أحد يجيب أو يسأل؟!

وتساقط الشعر من الرأس من العانة، وليتساقط من أباطكم من نواثب العاهرات في الليالي الباردة، من أعراش النخيل وهي تحت الشمس. تساقط الشعر يا جدي والأعضاء ارتعدت والحمرة في وجهي في أطرافي أريد لها أن تحتقن. تمنيتُ أن أحلم معك، أحلم في الحقيقة فوق الحقيقة، أقرب العوالم التي غابت عن رؤياك وأذهان الصحابة والأولين. مرغ الملكوت الذي كنت تسبح فيه على الأرض في الطين في الوحل في أسرة العاهرات والمحوبات، أمرغ ملكوتك، الهالات التي لبست حدقتيك، أسقطك تحت الغمامة وبعيداً عن الضوء بدلاً من أن تكون أنت الغمامة المعطاء والضوء ذاته، رعشاته، ممراته، ساحاته الباهرة، تمنيتُ أن أقتلع الحدقات البلهاء من محاجرِها وأزرع فيها عطشي وجوعي إلى كل شيء وأجعلك تحلم بعدئذٍ، أقتلع القش المحشو فيها، أفقاً الدمل النابت عليها حتى تفسد القشرة، فلتتفرجوا قليلاً على أنفسكم، على القذارة وهي تستعرض القذارة — أوه! كيف لا تستغربون حتى ولو جاءكم الشمس راكبةً بغلةً عرجاء؟ كيف يا حرقة الزمان الأبله؟ كيف يا عروقي، أيتها السلالة الجديدة العطشى إلى الدم؟ كيف يحيا الإنسان يدُ على الزناد عينٌ إلى الشمس، كيف كان ينبغي لجدي أن يحلم بما تحلم به الجموع اليوم؟ تمنيتُ اقتلاع حدقتيك يومها ولتحلم بما شئت، حينئذٍ سأعرف أن ستكون أنت وليس أمجاداً مكرورة تحملها على كتفيك جبينك وتطوف بها عبر حلقات الذكر ومجالس القمر والعنبر، توزع عطايك، تستجمع الكلمة والكلمات تكس تجود بالكلمات تبني منها من زيف الآخرين من الخواء والسكر المذاب قصوراً لأشباحك، وتحلم بعدها بأنك قرن الثور ولو تحرك القرن لانهارت الأرض على من فيها ولعمت الكون الكوارث!

كُفُوا عن السماع، انصرفوا،
لتدخل العين الحلبة.

تستدعيني اللحظة أن أكون، تستدعيني الحرقة المشتعلة أن ألهب الدنيا حرائق، أن أحطم جبهة الزمن العقيم، وأصفد العرق على الجباه العاقة، أن أنقش الصخر، أمرغ وجهي في مياه الأنهر الراكدة، هل تسير علها تسير، النهر لا يمشي في الدم ينبغي أن يمشي. في ذلك المساء وهذا المساء أحسستُ أنني أتعري في برودة الماء وأنزع زعانفي وأزحف في العراء، وخلفي النجوم حارة محرقة، أمامي أماكن في شساعة الزمن الغافي على الجباه قُلْتُ سأرحل إلى ذلك الزمن، أحفر المجاري، أهنيّ للامتداد، للاكتساح، أهنيّ لقلب الأرض كي ينبض، للأعمدة المنخورة أن تنحني أكثر أن تتقوس تنهار وليسقط الضياء المهوش،

للتصاعد الأعمدة الجديدة اللاهثة، الصارخة في وجه السماء، لتتكفى إيقاعات الأجراس الصدئة على نفسها. لم تعد هناك آذانٌ تقدر على سماع الصدا، هل تصقل المحارة التي تتلقى، هل تنزعها تكسر حولنا القواقع وأخرج أنا وهو إلى العراء، العراء يا شمس الجياد الراكضة، أنا أمتص الضوء من عين الشمس، أحتلب اللهب من المواعد التي أخدمها زمن البكاء والصقيع.

وتأتي إلّا لتلفني، لتقمط الجسد المهترئ، تنقبض العضلات في وجه تسكع الأشياء والآخرين، تأتي لتراكم القذى على القذى والصدا على الجليد واللحظة المقهورة على اللحظة الدوارة، الإنسان الجامد النظرات على الآخر المحموم، تأتي أنت أيها الجد الشمعي فتشدني إليك من التلايف من العروق النافرة والدم الفوار تسحبني معك إليك، إلى الخلق، إلى أراجيح السيرك البهلواني، فتغمرنني بالظلال الباهتة والألوان الفاقعة، ولأبحث عن نفسي هناك، ولأبحث معك عن الأشياء التي تحنّطت في القرار في الدهاليز ومحاجر البسطاء، تحنّطت في الرفوف في الأدمغة المتأكلة.

لكن ذلك العالم، عالمك أنت يُغريني، يشدني إليه، يُغريني بالسحر بالياقوت والمرجان أن يملأ جيوبى المثقوبة، بمليون ليلة فاجرة، مليون أمسية ساحرة، ألف يومٍ داعر، تُغريني بالتلاؤ بالاشواق بالبسوط الطائرة والأنعام الهازة تُغريني أنت ويشدني الطين الأحمر الوجه الأصفر والأزرق، البنيان الذي ينبغي أن أصنعه أنحتّه من لا شيء وكل شيء. هل أتركك؟ أبداً فأنت الندوب على جلدي فكيف أزيلها إن لم أعرفك إن لم أغص في الشرارة التي حرقت جلدي، في الموت الذي لا يني يدبّ يتسلّل إلى مسامي المفتوحة على الشمس.

أريد معك أن يتفسخ الموت الذي بالداخل، أن يتفسخ وينتهي مرةً واحدة. يا بني لا داعي لأحكي لك كل شيء، سأسرد عليك نتفاً من زماننا الذاهب في متاهات النسيان، اسمع حاول أن تعي ما أحكي.

- يا قوم، يا سادة العرب أشياخها رعاعها، أقبلوا حطوا رحالكم، انشروا خيامكم، تقرفصوا، أريحوا الأقدام قليلاً، وأنتم يا من تشقون الطريق الأخرى أنيخوا بقافلتكم تجاهنا واقتعدوا مكاناً بجانبنا، فإننا والله نود أن نجتمع قليلاً، نغني ونفرح ونملأ الدنيا صخباً وعجيجاً، الأفراح قليلة يا قوم والزمن غدار يوم لك ويوم عليك، يا بني قينقاع، يا كليب، تميم، يا سادة قريش، أيها الضالون في متاهات النجوم والتلال والشعاب! انشروا بساط الريح، دفقوا المسك والعنبر، دفقوا النرجس وخيوط القمر المخفي، واقعدوا واقتعدوا

الرمال الحارة، تحسّسوها، التفؤوا على بعضكم، تكوّموا (لا) وسّعوا الدائرة، من وسّع الدائرة وسّع الله مقامه يوم القيامة، ومن لم يؤسّعها ولدت أمه حماراً أو بغلة عرجاء!

يا جدي، ما كل هذا؟ لم أفهم شيئاً.

مهلاً لا تندهش! لا ترتعب.

ستارا!

باسم آلهة العرب واليونان، باسم الأولين والآخرين، باسمهم جميعاً. حيّوا الرسول الكريم وآله المكرمين، والصحابة المعززين المجدين وسواهم من المارقين والسخفاء التافهين، صلوا عليه وسلّموا. يا سادة تعلموا فيما تعلمون وما لا تعلمون، والله أعلم.

يا كرام تعلمون فيما تعلمون وما لا تعلمون، والله أعلم لا أعلم منه ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وهو السميع العليم، إنه كان فيما مضى من الأيام، في سالف العصر والأوان، إنه كان في صحراء خالية الأرجاء والأكوان إنه كان وقيل كان ولا يعلم أحد إن كان أم لم يكن؛ فالعلم لله وحده.

يا عبّاد الأحجار والنار، صلّوا على النبي الأمي، الصلاة، اللهم صلّ ... وبعد هذا أطلقوا سراحنا من هذا العناء ...

كان في جزيرة العرب نبتم فيها وشربتم من مائها اكتسبتم من عرائثها، في حدة هذه الأرض في ذيلها، كانت هناك ملكة امرأة عظيمة الشأن والمقام، انصاعت لها الأرض من فيها وعبدتها النجوم والأقمار حقّت بها الوجوه والأضواء، كانت تمُدّ سطوها على كل مكان، لكنها الساق ساقها أهم ما في الحكمة والجفن والهدب الأسود والعنق المغناج بيت القصيد يا سادة ها ها. إنكم تلقون لعابكم، مهلاً لم تحن بعد لحظة الاستمناء مهلاً، شدّدوا الخراطيم جيّداً ولا تطلقوها حتى آذن لكم، فالحظة آتية لا ريب فيها.

يا جدي لتلعني اللحظة المقهورة في دمي إن لم أنبذك، إن لم أتخلص من هرائك، من هذيانك اللامجدي، من هراء الزمن الضائع؛ فأنا لحظة آتية حقاً، لكنّها لن تنحبس في جنائن البنفسج، إنها يا جدي من الدم عندما يسيح، يسيح، هل تفهم معنى أن يسيح الدم يا جدي فيُعفر التراب والجثث والزمن.

الله الله درك يا فلان، زدنا من هذا بربك، أسرع، وأخبرنا بعد الساق ماذا يوجد وماذا يوجد، وماذا جرى لها أيضاً مع الجني الذي سرق عرشها قبل أن يرتد «إليه» طَرْفُهُ.

... وكان سليمان إذا ما تزحزح من مكانه اهتزت أركان قصره، أرعدت الدنيا وأبرقت وانخلعت القلوب اقشعرت الأبدان، نظرته تسبيحات بسمته إشراق، غضبته ويل ثبور على العالمين، يا ويل الإنس والجن من غضبه.

احك احك أيها الجد الشمعي، إن اللهفة في الداخل اشتعال الشوق رءوس أفاع تتناول، تريد أن تلعق، أغث الأفاعي أنقذها، ليكن السّم الزعاف، ليسقط الضوء الخافق على وجهي، وسأعب أنا من أسانة الداخل، من ركود الزمن المنسي، من جثوم الأشباح التي لم تُرعب سوى الأناسي الذين فقدوا الظل واللون، وغيّبتهم متاهات الغيبوبة. أريد أن أعرف كل شيء، إنها لحظتك أيها الجد لتبين، لتشرح الجثة المنملة، لتمزقها إرباً إرباً، لتعرضها على الأحداق الزجاجية، نعم أتفق معك، ستقول لي لن تفهم، لن يفهموا شيئاً، وإن نبوت العمى قد حطم الحداق، وإن كان كل شيء ضاع، تشتت في الخرائب، وليس هناك سوى الأطلال تندب حظها التعيس، تشكي تتشاكي على بعضها.

لكنني حفيدك المشوّ، قد تزيل عني حكايا تشوهي، قد تصهرني تصقلني، تغسلني أضواء النجوم التي تتيه، قد، وقد، فهل تسعفني؟ هل تحرك الوثن في الساحات، الأوثان، تصدّع البنيان، كيان الوجه الأجدب، تُعريه أمام صفقاته وعهره، تصرخ تبصق في وجهه؟ أوه! أتنام؟ أوه! هل أجذبك من لحيتك، عيبٌ يا جدي وراءك نجومٌ وتلالٌ هائلة، فكيف استطعت أن تنام! أعرف أنك، أن اللحظة في دمك حبةٌ جليدية، لكني لم أشخ، لكني لن أشيخ، فاحك، سأعب، سأمرغ الوجه والدماغ وأتقياً كل شيء، ولكنني أعطي أقطر من شراييني، أفتح مسامّي ودمي على العراء، على العراء يا من يعيشون بلا زمن.

قال لي الآخر في الشارع، في الحافلة، على مائدة، في مقهى، في ماخور، في هذيانٍ ما. قال لي دَعِ الزمن، لنستريح جميعاً، لا داعي لشيء، احمداوا الله اشكروه على ما وهبكم من نعمة، اهنئوا وقرؤا عيناً، واطلبوا الستر والشكران ودعوا المهارات والهرطقات! ...

قال لي وجهه معطفه عربته جبهته ساق زوجته أن أطرح الزمن بعيداً وأركب قاطرة اللانهاية وأصبح مع العبير عائق أمواج العبير، وليتييس الطين، ليتعفن ليتكلم ...

يا جدّي، ماذا أقول له؛ فالزمن يقهرني يقهرني يقهرني ...

— يا بني نعم تذكرت، اعذرني، كمّ إله النوم والنسيان، نعم كنت أحكي لك عن سليمان وجيوشه الجرارة من الإنس والجن، لكن هناك حكايات أخرى أشوق وألذ. لقد مضت وجاءت أيام وانقلبت الدنيا إلى حالٍ آخر، انقرضت أقوام وولدت أقوام، ولدت أجيال وتكاملت دورات الفصول.

كان فيما كان وفيما لم يكن وفيما سيكون أناسٌ يمرحون يغنون بالليل ويتعرون بالليل ويكتسون بالنهار، أحبوا الحياة وأحبّتهم، كانوا يتناكحون ويتوالدن لا يفكرون في القوت أو سَقَطِ المتاع، مجاري الأنهار والبحار تنتهي إليهم، صنعوا لهم قلعة لا ينزلها إلا من نزلت عليه بركتهم، حُكي أن تلك القلعة كانت مسحورة ومملوءة بالأختام، والويل لمن يقترب؛ إذ سرعان ما يمسخه سيدنا سليمان ويحيله إلى مسخ إنسان، كانت تصرخ بالليل تصرخ تغفو على الأحلام والأنعام، وقيل إن من يدخلها تُفتح له أبواب الجنة ويتمرغ في الحليب والعسل واللوز والموز والتمر فيها نهود، والأغصان فيها حور عين، والندى معتق الدنان.

«هل تطمع، هل تحلم، هل تنال؟!»

من الخوابي تتدفق أنابيب المسك والعنبر، والجدران والأعمدة من الرخام، والأكواب قالوا من الممرم والألق في العيون، والصفاء على الوجوه والتفاح والإجاص على الخدود، باختصار كان هناك كل ما تلذّه الأنفس وتشتهيهِ الأعين.

والصخب الصخب، يا بني، الحركة المجوّفة، اللحظة المدموجة في أختها، الالتماع والضوء الباهر والاشتعال الدافق، وارقصي يا حدائق الأماسي الحانيات، التوي أنت يا خصور، التوي يا بطون، تمرغي يا أوراق سيقان، تشنّجي يا فوانيس المدينة الكابية، اسكبي الدمعة والبسمة، القهقهة والأنين؛ فالخلط في كل مكان؛ فالألوان تداخلت، لم يعد بالإمكان أن تميز بين شيء، الحواس فقدت وظائفها وهم فقدوا ألوانهم، وإن تعريت هنا تشنقني اللحظة واللحظة الموات واللحظة تذبحني تكرار اللحظات المقهورة الألوان، الأشياء التي فقدت طعمها، جدّي الذي يمرر أصابعه على لحيته الجذباء، وجهي المندوب على المرأة المشروخة.

الويّ الوي، يا سلام! يا صلاة النبي أحسن! يا أجمل من رأّت عيني وتشهّيت! يا ألف حمامة وليلة حمراء! هايتها يا ساقى مشتاقة تسعى إلى ملهوف، ملهوف يا يا قمحية الفخذين بركانية الفرج والنهدين! هايتها يا غلام قرّب مني وجهك الأملس، وقّعي يا وداد على أوتار القلب، اسكبي الأنغام على القلوب المكلومة.

وليصبح وليصدق العالم بالموسيقى.

رائع كل هذا مذل، لم أكن أعرف أن ثنايا الزمن المنسي تحوي هذا كله، لم أعلم أن تخثر الغيبوبة منه طبيعة تكويني، لم أكن أعلم أنني حفيد داعر، وأن السحب المائعة

المتلونة كانت تغلّف مدننا النحاسية وتمنع عنها الشمس خيوط الألق؛ ومن ثم فليجتمع الصدا وليهب غزوة مذعورة إلى الخلف إلى الأمام، ليحاصر جدران قباب أدمغة القلعة المسحورة، العباد الساجدين التائبين حولها، رائع كل ذلك الالتواء، الفجور، النغم المقطّر من حلقات العذارى، حبال العنكبوت التي تشرنق العباد، رائع.

لو كان يعلم، لو كانوا يعلمون، لو تكوّن البصر في المحاجر ولم تبقْ ثقباً مجوّفة، لو أن البؤر على الأجسام امتلأت قيحاً دماً، وساح كل هذا على المسام على الأرض، وجرى جرى اندفع لطخ صدا جدران القلعة وكان مهرجان النتانة، لاختنق الجميع، لانتهت المهزلة، لو فقط!

«هل تطمع، هل تحلم، هل تنال؟»

الخلاص الخلاص أيها الجد، أتمم حكايتك، امضغ صدا الأغنية رنين الأجراس الصدئة، أريد أن ...

لا، لم تنل مني شراستك، ليس في الأمس ما يملأ عظامي، ما يُصلّبها، ساقاي متورمتان ليس عندك الدواء، لا أمجادك لا زمانك الهرم بقادر على خلقي لكن دعني أسمع بطولاتك، احكِ لي بعضاً منها، فجرّ عيوات الزمن المهترئ، فجرّ دينامية النسيان واللحظات الميتة أفجرّ دينامية الخوارق والمهولات، أريد أن أسمع أشتاق أن أعلم أعرف، أشتاق إلى الملحمة إلى السفك إلى التذبيح إلى الدم يُعفّر كل الجباه. نعم أنا سفّاح، أنا لا إنساني، أنا عصارة الدم المتوهّج نعم لكن دعها، لكنه الحصار يا سادة يا عباد هل تفهمون، الحصار في الدماغ، الحصار في الزمن، في التاريخ.

أوه! مهلاً لا تتعجّل لا تتشنّج من أين تملك الحرارة على هذا التشنج، كيف تنفر شراستك وعروقك، والصقيع، الصقيع الذي ينهش العظام، ألم ينهش عظامك؟ قلتُ لك إني مستعجل، والرحلة أمامي طويلة، ودماغي لا يرحمني، وعين الشمس تلتهب، أتفهم معنى أن تلتهب عين الشمس؟ لن تفهم، لقد تهرأت ... احكِ إذن!

لا بأس ما دمنا نعبث قليلاً، ألا تعرف الشيوخ يهرفون، سَاهُرف، سَاهُرف ... ولما وصلتُ قبيلة ذبيان إلى عين المكان وجدتُ الخيام مقتلعة والنوق مسروقة والنساء مسبيات وكان الأطفال ممرّعين على الرمل والأرض قفر، الأرض خواء ... فكان أن هبّ القوم هبة رجل واحد والشرّ في العيون، والغضب يزفر منهم، وكان العراك والنزال وشهدتُ العرب يومها معركة حامية مع أعداء الله وارتفع السيف وزهق الباطل، إنّ الباطل كان «زُهوفاً»

وكان حسام الدين وسيف الله المسلول يجندلان الرعوس من اليمين إلى الشمال ... وما إن غابت الشمس حتى كانت الطيور قد وجدت ضالَّتَها وأعدَّتْ مأدبةً للكواسر.

وكان ... كان ما كان ما كان.

... عنتره الفارس المغوار أنت تعرفه، عنتره بن شداد، قيل كان من الصواعق وحقق الخوارق، عندما يمشي تهتز الأرض والجبال على جانبيه، إذا رَدَدَتْ ضحكته الفياقي والقفار، صُراخُه هدير وزحفه طوفان، آن آن يا حفيظ يا ستار، الرجال ما عادوا يلدون الرجال، النساء فقط يفرزن الأقزام والضفادع، الرجال ما عادوا يلدون الطوفان، الرجال يسكنون يتناسخون في اللحود، الرجال خلف الأرتاج، خلف الأرتاج، فقط يشربون الضوء من النافورات، ليسوا في الجلبة والضوء، لم يشربوا الهدير، لم يروا البرق.

قال جدِّي وكان عنتره مرتفعاً مهزوزاً على جوادٍ أبلق، وعندما عاد إلى القوم من غزوتهم اقتسموا الغنائم، لقد أقاموا الدنيا وأقعدوها، وتجاوبت الصحراء بالأنغام والأشجار ورائحة الشواء.

تقول يا جدِّي ...

نحن هببنا، نحن اندفعنا مع التيار والإعصار واكتسحنا الدروب الخربة مع الباردة، ونفثنا الحرارة في الصقيع والعرشة في الضلوع. كانت الأرض مواتاً والرجال أقزاماً والأطفال مشوهين والرخص على كل الوجوه، طحالب خضراء على النوافذ المنخورة ...

نحن اندفعنا من السهول والجبال لنقهر ذلك قهرنا، لنعلمه أننا هنا، أننا موجودون، في القرى الآمنة الوادعة كنا نعيش الفرحة في العيون وأي فرحة! والحياة على شفاه تلك الحياة التي تتدفق تشرَّب من كل مكان.

السُّم السُّم يا جدِّي، أريد أن أتسمم، أريد أن أشربه، أمتصه، فهل أكتسب المناعة، الترياق؟ هل أخلق المسممين؟ هل تنال مني القطرة الجرعة وهي التي تجفُّ في الكأس قبل أن تيبس في الحنجرة في المخ؟ السُّم أيها الجد الملعون!

«وقالت المغنية «أمل حياتي يا حبي غالي» أيها السادة ليُدِمِ الخلط على الرصيف، على الأكباد المقروحة، والأدمغة المشققة.»

اقبض العصب اقبض النفس، حاول أن تُنطق الأشياء، أن تكون معقولاً، لا أفهم بالضبط ما يقولونه، كيف يحدث أيها السادة، كيف؟

في المدن المحفورة في الفراغ في النسيان. ولدنا، نبت النسخ، تجدَّرت العروق، طلعت الرؤى الدوارة، لم يكن هناك شيء يكدِّر نبضات القلب، وهام المخ، فجاءوا من المدن البعيدة،

هم جاءوا يحملون الأكياس والأقراص وقالوا سنطعمكم، ستدبُّ الحركة في كل الأرجاء، نعم كانت الحركة جامدة، لكنهم جعلوها تعيش أبدية المورد. نصبوها أوثاناً في الساحات، أوثاناً بأيادٍ ملوَّنة تحمل باقاتٍ اصطناعية.

«هل تعطيني سنابل قمح، هل تعطيني المناجل، هل تعطيني شيئاً، لم أستطع أن أعطي نفسي، لم أستطع لحد الآن من العراء — أكون.»

من المدن البعيدة جاءت قوارير البنفسج، جاءت دنان الغيبوبة، جاءت الكوايبس والكواكب الوهمية — والجنة التي وعد الله بها آدم وحواء. نسلهما المزواج المنكاح (جدِّي كان مزواجاً، وفي كل أرضٍ يحل بها يخلق ذرية تتناسل بدورها، تتناكح في الفوضى وتدور على نفسها في الليالي والأقمار الحمراء، في المتاهات المغلوقة وكنْتُ أنا من نسله الزكي، فكيف أنزع عني بُقع التشويه، كيف تتأكل كل الزعانف، تسقط تترام في الأرصفة، يكون التقاء الضوء، كيف يحدث هذا؟! تقول أعطيك الضوء، أقول تمرغني في النيون، تقول تكذب، حملتُ إليك أطباق العلم والحضارة، أقول إنني مغروس في جهالتي، مغروس في جسمي المنحط مع تاريخه المحاصر، لم تُعطني شيئاً، لم أستطع أن أعطي نفسي، لم أستطع لحد الآن أن أكون، أن أعلن نفسي في وجه العراء في وجه الشمس.

وأكلني التئنين يا بني أكلنا التئنين، وما زال الوثن الأوثان في الساحات ما زالوا متجمعين، يحملون في أيديهم باقات البنفسج، ما زال العبير يضوع من المراحيض، ما زال التئنين يلفُّ أذرعه على أشباح المدينة العرجاء، ما زالت الأمخاخ تقتل نفسها في قنينة غيبوبة. والإسفلت لم يضغط بعد، التربة ما تزال متكسّسة لم تُفتّت.

أيها الابن، الظل موجود، نحن نتفيّؤه، كل شيء في مكانه، كل الأجداد أخذوا مقاعدهم وأنتم تتدحرجون في السلام، اعتلّوا الأعمدة والمآذن، صوتُ الله من هناك يتردّد صوت الحق يرتفع في كل مكان! والخير يُعم البرية! والعباد الساجدون الخانعون يمرحون يغنون في الربيع الخريف والصيف والشتاء، وكذلك فهم يأكلون، ينامون، يضاجعون يحملون في الليل بالجنة، يملؤهم الذعر من يوم القيامة وتفتنهم الدنيا بالطيب والوجوه الملاح ومع ذلك فقرة عينهم في الصلاة، في الصلاة!

ماذا تريدون بعد هذا، ماذا تريدون، لم أعد أفهم، ما تبصرون، ألا ترى أن الثريا تلمح في سماء مدننا في واضحة النهار وكل نهار، ترتعش أنوارها على الوجوه الشاحبة، تتوزع الأنوار، تزرع مناطق الضوء، وهنا هناك في كل مكان الناس يسترخون تحت النور

في النور، هذا ولا داعي للدخول في التفاصيل ... دَعِ التفاصيل يا بني إنها مبكية مضحكة، هل تريد أن تُحس الفاجعة ...؟!

«جَدِّي كان يُشَبِّكُ أصابعه بلحيته يبكي ويضحك ...»

السُّعَار يا زمن العُهر، أيها الماضي الهرم المَجْمَد في عروقنا، أطلقوا سراح الزمن والتاريخ، دُعُوا الدماء تتفجر، دُعُوا الإنسان يسير على قدميه دُعُوهُ ينظر فوق حدقتيه أكثر من امتداد نظراته، دُعُوهُ يحرق حصار اللحظة ويتيه يتيه بعيداً عن المدى المحصور، عن اللحظة المخنوقة، عن الإنسان المذعور، عن الجمهور المذعور، عن الآخر الذي يجد هويته في ربطة عنقه، ذلك الذي يعيش حقارة وجود، دُعُوا الطوفان يندفع، إنه لا يفهم بمثل ما يعايش، فأين لحظة التوهُّج في مسيرة الجموع؟ أين الحرارة الموعودة في شفاههم تحت الحجاب الحاجز، جدي كان يحكُّ جِلْدَه، كان يلامس عضوه المشجوج، يتحسَّر على الأمجاد المهزومة المفقودة تحت الطفح، يُصلي للرب للملائكة للأولياء الذين طوتهم عِظَاتُ الزمن الإلهي وهُذَيْهَاتُ النسيان.

كان جَدِّي يتحسر، تصوَّروا كان يبكي، يا جدي لا تبك، أنا الذي ينبغي أن يسقي بدموعه كل أراضٍ الفقراء كي يبتل، كي يستفيق على الرعشة والضوء! لكن الدموع لا تأتي، لا يأتي الانسكاب، لا تأتي الناعورات الدَّوَّارة الحُبلى بالدموع، الدموع أكياس، ها هنا الجوع أكياس، إنها روحٌ قدسية، سَخَفُ هُراء، إنَّها الإسفلت النتن من المواخير الطاهرة، من الدواخل المطهرة، من الأنا الضجرة التي لا ترضى، لكن لا يكفيها أن تدمر أو تنعى، أن تواجه العالم بالعنف الأهوج، إنها تصنع التدمير، تحنق الذين لا يتذمرون، تحض الندم في كل مكان، وليغرس الوجه في كل الحقائق.

أيها الجد، أيها الزمن المحروق في عصبي ويحرق أعصابي، احكِ تحدَّث، أنا ما زلتُ أسمع، ما زلتُ أُلْفُ القصاصات، أُعِدُّ للرحلة البعيدة، أنا السندباد الذي لم تحلم به شهر زاد ولا لياليها الألف.

كفى، قف، ليفترسك التنين أو التمساح! لا يهمننا هذا كله، لكنه بعض همومنا مع ذلك، لكنه بعض الوله واللوعة فينا.

عندما هبَّت العاصفة، كنتُ فيها منها إحدى ضحاياها، لكنها كانت مأساتنا وهي إلى ذلك كانت بدل الانطلاقة، أطلقوا سراح الزمن التاريخ لتندلع في تشابك الأدغال، الدغل في كل رأس. ولتتدبذب الأدمغة في الأزقة في الطرقات في المراحيض في المغارات. التمساح

افترسك، لكنه أبداً لن يفترس ثناياي وأضراسي أحدٌ من تحدد في لبه، أنا هنا ولست أي حماقة أي ذكرى سخيفة من ليلة حمراء رخيصة يتذكرها كل تافه في العالم!

اسمع يا بني كن عاقلاً، يُحكى فيما يُحكى ...

يا جدِّي أنا هنا أحضن لهيب الليالي والأيام المقتولة، أجمع كثافة وتخثر الأنوات المغدورة، لا أجمع السأم، لكن أجمع تذمُّر الجموع التي أوقع بها في الشُّرك.

لكنها الجثة، تسير الآن، لا تصحبها الجموع، الجثة تسير محمولة فوق تابوت مفكوك، يحملها رفات رجال. كان الطريق خلاءً يومذاك والقلة القليلة تسير مطأطئة الرؤوس، لا تقدر على النظر إلى فوق، لم تكن في المقل دموع ولا في القلوب أحزان، الظل اندحر، الشمس تظلمت، النعش يخترق الأزقة والطرق الكبيرة، أعطوه ظهورهم وصلبوا عيونهم على الجدران، كان النعش يمشي منكسراً، كان حاملوه منكسرين في المقبرة كان الصغير، الفقهاء تجمعوا كلهم في المقبرة، رُفات الرجال تجمع في المقبرة، يبقى الأطفال وحدهم في المدينة، كنتُ في المدينة، أحكم إغلاق الأبواب، رويداً رويداً، أخذت المدينة تبتعد عن المقبرة، تلك التي بقيت وحدها ومن بعيد تسمع أصوات الفقهاء، تقرأ على قبر الجد أصوات مختلفة غير مفهومة آتية من مدى سحيق في البعد، عبر ممرات وتجويفات شعاب حاصرتها الأعراس.

عندما عاد رفات الرجال من المقبرة وجد كل الأبواب مغلقة، لم يستطيعوا حفر الثقب فالأصابع والأظافر تساقطت، صرخوا استغاثوا، دُعروا، عادوا أخيراً أخيراً، عادوا من حيث أتوا.

لا أطالب بشيء بعد هذا.

لا أطالب سوى بأن نكون.

نعم نكون.

مقاطع ساخنة من ليالي الصقيع

لا تدعني لا تتركني أنا هنا ملقًى على الطريق. أحاول فقط أحاول أن أَلْمُ الدموع المهرقة على الأرصفة القذرة، على الجدران على الأيام المشروخة من تهرؤ اللحظات المقتولة في كل حين. في كل نفس مصدور. أعزّي نتانة المزابل المطروخة. لا تدعني لا تتركني يا أنت، يا مَنْ لا أعرفه، يا مَنْ أبحث عنه، يا مَنْ أجري خلفه، أسقط أتساقط تأكلني اللحظة وأختها، أأأكل من اللحظة ذوبانها، اندحارها عُرْيها عهرها. يا أيامًا ثكَلت في أرحام العواقر أجهضت في أصلاب الأناسي، هل ولدَت، ليتها ولدَت، دون عَنان السماء، ليتها تعانقني، تشدني تهزني تغرسني في وابل التربة، أشربك أيتها التربة، أيها الطين الذي يكبح جيبني، يشوّه الجثة المقبرة في داخلي يدريني عبْر القارات المنسية في الدهاليز المنسية خلال ذاكرة الزمن المخدر، الزمن المصفود العروق — قالوا ووجه الحبيبة جمرات في دمي، وأقول لكم يا بني شبيبة السفلة، أستفزكم، لا تستغربوا اهدءوا، اسجدوا، إنها لحظة الصفر، دوروا عبْر محاجر الأصفار، دوروا خلال الدوائر المغلقة، لا شيء في العيون إلا السهاد، السأم، البلادة، غفوات الليالي الباردة، لا شيء سوى تشنُّج الأنا والآخر في إسفنجة منفوخة — لا ترتعبوا، لا تدفنوا رءوسكم في الوسائد المليئة على الأقدام في الأسواق، تأكلون فئات الموائد المتعفنة، قذارات تاريخ معنكب محبوبك بعقد شهريار، تصوّروا تصوّرًا يا عباد، هل تتخيلون ما حدث، ما هو حادث، ما يمكن أن يحدث في قواقعكم، في تقوقعكم، في الوسائد التي تسقط عليها رءوسٌ لا تملك أن تتحرك إلى أن يؤذن مؤذن معلناً لقيام وقعود وسجود، اركض يا جيل الليالي المغدورة، اركض يا إنسان المغارات يا بشر الأدغال، اطرح الرمل، لا بل اغرسه في ذلك الفوق ... اركض، أسفر عن الخمارات، دغِغ الرقاب الرخوة، بل اشنقها عساها تستفيق أو فلتمت إذن، لتمت، الموت مصير، الموت حياة، الموت بداية، الوهج النابض، خفق القلب للحياة للقفار والأراضي الجرداء، في حلمات النهود البطون المبقورة، وُلد الإنسان من عين

الشمس، دبَّت مشيئة السخونة في أوصال المحنَّطين من عهد الفراعنة — اركض، اصعد إلى القمر والمريخ كل الكواكب المجهولة، وأطلق من هناك قذائفك على بُقع التشويه ومعالم العفونة، أطلق قنابلك الهيدروجينية على السراييب، فجَّر المحاجر والجحور، دَعِ الجرذان والنيون، تعالَ معي إلى رفاقي.

التمساح افترسك أيها الجد، فلماذا يفترسني أنا الذي أعيش السأم القلق الضجر، كل مركبات هذه الأيام الرمادية، هل تعرف هل تعي؟

ادخل معي الجنة، ادخل معي الواحات الخصبة، ادخل مع دورة الزمن الولهان، ادخل معي فهناك الحور العين والحليب والعسل، والتين العاصفة تستنهض من كل مكان مَنْ يجعلها تخترق الأبواب، لا تطل فحسب وتعتلي السماء، ولن تتكبر بعدها، لن تحتوي نفسها. في القواقع، من داخلها يخرجون إلى الهواء، دعهم يعبُّون من الغازات السامة، إنه الأريج يا سادة، إنها عطور ومسك أسيادنا الأولين، فَجَّر تكدُّس الزمن البليد، انفُخ في الركام، إنها الريح العاتية، انفُخ على الأقزام، العاصفة أنا من الشقوق وكفَى، من خلل العيون الرمداء. من يضع للعاصفة جناحًا فتطير المربعات المكعبات المثلثات المبرقة المكدسة — العاصفة لن تنام بعدها على أجنحة الفراشات ستنداح سنْهَب، من كل النوافذ المفتوحة على الشمس والعراء.

انفُخ في الريح الصرر، اركضوا جميعًا، حرَّك فرائصك، أيها الفرس الذي لمَّا يجمع بعدُ، اجمع الجموع في الجسد في الذاكرة، هوسٌ في كل شعرة، فهل تأتي ... لا تدعني لا تتركني، قالت أكون حبيبتك، أين سنذهب ومتى تُقبل لتُسْتَفْرَني لا أومن إلا بالربع، لا أومن إلا بمن يكون، ابصق على الأصابع المخملية الوجوه الطرية المخنثة لا تتركني فنحن في موقدٍ واحد ولدنا، وفي كوكبٍ واحد وُجدنا، والسيف نحن معًا حدهُ المحدد البتَّار، وأين ترحل دون أن تصحبني معك. ولِدنا قبل نوح وطوفانه، نحن طوفانُ نوح، هل تكون معنى الطوفان الأعنف، هل تكتسح الابن الذي نجا هو الذي غرق لا تدعني لا تتركني؟ فأنا تقهرني اللحظة، تقهرني القطرة الحمراء الصفراء البيضاء، يقهرني أن أدفنَ رأسي كل ليلة في الغطاء وأحلم بأمجادٍ مهزومة أصلًا، يقهرني أن أصحو على الحزن، أسهر معه، أبييت مع الأحزان، يقهرني أن تشوي عظامي الأحزان. يقهرني أن يقتلني سأم الوجوه المقبوضة، يقهرني الجبين والعين وذباله اليوم والأمس المغدور — يقهرني الإنسان الملموم في الركام هنا يقهرني.

لا تتركني يا طائر الرُّخ فأنا هنا معلقٌ بين أضفارك مشدود إلى يذبل، مشدود إلى خيط نور المابين، معلق بين مناقير اللقالق المهاجرة إلى بعيد، مسحوق بين نعالٍ مخروقة

ممزّقة ككل ليالينا الممزّقة، أودُّ أن أهاجر معك لأهرب منك فيك يا أرضاً موأناً، لا تبعد عنك إليك، وأذكرك بعد ذلك وأنا محشر مشتعل بالحُمى بداخلك، يا أرضاً لم تنبت سوى الشح. لا تدعني فلأني منك جثتك هُرعَت إليك، أنت يا نغمتي، يا ذات البسمة التي تحضن حياة، وزعتها على الأناسي المتعبين، هلاً زرعته في دروب الشح والكآبة، هلاً جعلتني أحلم بألف ليلةٍ مخضرة، هلاً جعلتني ألفَ صفائر البسمات الطفيلية، وأوزّعها على الزملاء الذين ما تأرجحت بسمة أو فرحة على شفاههم، أودُّ أن أحكي لك كل الحكايات التي عشتها والتي أتوق إلى عيشها. بين شعاب الجبال في الدهر على أجنحة الصقور، ومن هناك أسدّد الطلقات بوجه المدافع، توجه الطلقات، القبيلة، يصخب الانفجار.

أهرب منك إليك، أسقط على راحتك المتغضّنة جبينك المشروخ، أمتصّ بقايا دم لزج فتبقى الدماء تشهد للزوجة ليُقال يوماً إن الإنسان قد وُجد وإن الأرض لم يملأها الأقزام والجرذان فحسب، بأن كنا وكائنون، وسنكون في كل مكان، وأن الحُمى في كل زمان. لأننا كنا نريد أن ننزل إلى الشوارع مهرجاناً؛ لأننا كنا نريد أن نصقل الصداً فينا نُعيد للسيوف نُخرجها من الأعماق ونلصق وجوهنا بالشمس، ومن الرحم ينثال العرق فيغلي العالم في بؤرة انصهار. لحظتها تتحلل الطحالب والزوائد الدودية، تتحلل القشور الفاسدة ويعمُّ التآكل الزعاف. لا بد أن تتأكلوا بعد أن صديتكم بعد أن أحكمت على رجالكم الأدوار. بعد أن هبط الصخر من فوق وتفجّرت طبقات الانصهار من تحت وحاصرت الأجسام. لا بد أن تتأكلوا.

لأننا كنا نريد أن ننزل إلى الشوارع مهرجاناً. في القبضة منجل، في القبضة حفنة، في العيون مدارات شمس مأسورة. والمنجل بين الأصابع تجمّع زحف مغولي يند يجندل الهياكل المنصوبة على المرتفعات المنحدرات القابعة في الظل دون منطقة الحرائق. تجندل أيّ رأس غارق بين الإبطين الفخّدين. جندل الرءوس، اغرس فيها الدبابيس، طُف بها عبر حانات الزمن النخّاس، علّقها على الشرفات ومدخل الحارات، ولترتفع الرءوس دوماً إلى فوق وذلك السّعار سيسري ...

في القبضة حفنة قمح، على الجدران ثقبٌ كبير مفتوح ببلاهة كادت تكون كهوفاً، إنها كهوف الزمن النخّاس، وكانت السنابل قد يبست ... قال الراوي: وجاء زمنُ سرت فيه اليبوسة في كل مكان ودبت القشعريرة في كل النفوس، وارتعدت فرائض الأسلاف الصالحين المجدّدين. الحناجر فيها ييبوسة ولو أن الماء متدفق فهم ما زالوا يتصايحون عطشاً، وبدّءوا يتساقطون صرعى. القبيلة تلو القبيلة. وهبطوا كلهم مرةً واحدةً إلى المارد.

قال اسقوهم من معيني. لم يدرك أنه قد جفَّ من قرون وأن أحواضَه جِرارَه مثقوبة ولم يُعدْ ثَمَّةَ عسل — لا حليب. ارفعوا حناجركم إلى السماء، أوه! ليس سوى الضفادع والجرذان هي التي تتساقط ... هل جفَّت الضروع كلها حتى الأثداء اقتلعت كلها، كلهن غدون بلا أثداء. أمي أمك أمهاتكم بلا أثداء؟ لكن لِمَ لا تحاولون امتصاص البيوسة؟! يا ويل الإنسان ما ارتفع! إرم ذات العماد تهوي في عينيك، تهوي في قعر سفالة الأيام. لم يُعدْ أحد يحلم بأنه يحطم بقايا الأبراج الدفينة في الداخل، مَنْ يتوق لتهديم أسوار تاريخ بارد الدم في قيعان الداخل، أن يهدمه لبنَةً لبنَةً ويفتت التربة ولتنه المهزلة مرَّةً واحدة وكيف؟! لِيُسحق هشيم الخرافة المزمنة لتُصعق المدينة التي تشغف العين ترد القلب والعين عنها إليها تشق اللحظة المشحونة في قوالب صلصال مهترئ، وتسقط في بؤر الذوبان، تسقط في قناني عبأتها الآهات والأشواق وندى الحشرات الأئين والحنين والتذكار، وأنا كنت حلمتُ هفوت ضممتني دمرتني لحظة اللقيا — دفء العناق رعدة الحلم عندما دنوت منك عانقتك عانقت فيك هيجان الدم في العروق، يا سخف ما يقولون ما قالوا — ما نقول ما قد يُقال من أتفه القائلين والقائلات (وأكرم القول والأقوال عن أكرم القائلين). علِّبوا تلك اللحظة التي كانت ستتفجَّر في ذلك اليوم في تلك الساعة وكل ساعة. لكنَّها أسلاك الشلل، لكن لتحول الطاقة لتفرغ في صلوات الضباب والحسرة والآه، لتدبَّ على الوسائد الأسيرة المنهوكَة لتفرغ في تناسل الصراصير. وقال المارد الذي هبَّ من كل الزوايا والمنابر، قال، تشنَّج الصوت في حنجرته: برِّدوا الزمن، اقدفوا الأحياء، دعوا الأموات فقط، يطيب لي المقام لا أريد الطنين، أنا سيد هذه الأرض السماء أنا الملكوت والأفق الوضاء ومن سماتي ينتشر الضياء، أطفئوا كل القنادل والمشاعل طوَّقوا كل الطواير التي تشرب الضوء من التراب خلال السنابل.

جسدي يتلوَّى، أمعائي تتمزَّق، الصداع في الرأس والأمعاء والسوط لهيب في الدماغ السوط جداول دماء تنزف من المسام، وهو يمتص مني السحنة تلو أختها منا جميعاً. أرفع يدي أضرب الباب أضرب الشباك تعود إليّ ملتوية. لكني أفور لكن الدم يفور وتاريخي يُولد من قعر الزنزانة من الجدران الحديدية. في القبضة حفنة قمح مسحوفة. والدوائر الكبيرة مفتوحة بهلع. الدوائر المحنطة في وجه كل شيء أفتح القبضة لا أجد شيئاً الراحة مقوَّسة لا شيء في الأرض ومن حولي كذلك أواجه السماء القمم الشامخة المتهاوية الوجوه المنفوخة الدروب المتورمة الأجسام المجلودة القيعان المماشي المذعورة.

فلأننا كنا نريد أن ننزل جميعاً إلى كل الشوارع حاملين عهرا وقروننا التائهة، عقود الذعر والخدر في ذاكرتنا، حاملين الأطباق القمرية والليالي المغدورة ركامات السأم

في حناجرنا، السلاسل الجبلية لنخاعنا لعظامنا ودمائنا الباردة للقلب التي فقدت طعمها لجثثنا المتعبة على الأرض منهوكة، حاملين آثار التشويه بصمات البشاعة حقد ومقت الذي مات وزيف وسخف الكائن، حاملينها إلى الشمس، إلى العراء الذي ما عرفناه، دبغات اللحظات المقتولة، دبغات السياط وأصابع الفولاذ التي كانت تفصد عروقنا وتخصي أعمارنا، أنت وهو وهي اقبروا الكلمات، السيف مروحة أجنحة دائمة الرفرفة وفي كل مكان جرب أن تمد رأسك، لتجرب الأعناق أن تتناول أو أن ترفع القبضات المثقوبة. اقبروا الكلمات اعتقدوا الحناجر وهي مقطوفة مشنوقة معلقة على أبراج المدن فوق المناير على الأعمدة أنابيب الدور تعبق من المناير أيضاً. والرءوس التي أينعت قد قطعت فهي لا تني تعتز لا تني تمتد طويلة صلبة تتكسر عليها رءوس القطعان مدفونة مع إسفلت الشوارع.

الرءوس التي أينعت تملأ الأزقة رعباً بُنيت من براري العنف تربت مدفونة مع إسفلت الشارع، اركض عبر الشوارع كسر الواجهاة العاهرات اللاتي يردن تعليمك الأخلاق في آخر الليل، اركض مع العواصف المقطوعة الأجنحة.

إرم ذات العماء في عينيك تنهار، إرم ذات العماء تتحول إلى أبراج مهشمة، محشوة تبناً، غيراناً للجرذان للغربان. وفي القعر يبكي الزمن المهزوم. زمن لزيادة الأحلام. وثمة إيقاعات شفهيا حزنٌ جليدي لزمان تجلد ترتعش بين آلات موسيقية مزقت أوتارها رعدة طائر صدم جناحيه بظلال المكان فزعزع المكان، اقشعر الوتر تملكت الأبراج يا ويلها ما سقطت!

والآن بعد تلك المسيرة الطويلة المتشعبة، المتهاكة المنهكة، بعد تلك الطريق كلها حاولت أن أنتفس، وأجمع بقايا لهاث مقبوض عند الحجرة، أن أذوب صدا الزمن الأسيان، على اللحظة التي لم ترتعش تصدا الآن في المكان، وأي مكان! تشتعل النار في الفتيلات الذابلة، عبوراً بتلك الطرق المسدودة التي كنا نجد أنفسنا تلقاءها في آخر كل رحلة، وكان الصمت هناك، صمت راعب بنظرات تقذف الحقد واللهب الجاف ولتعربد عهارة الزمان في الزوايا لأسحق أنا وأنتم وأنتم يا ممصوصات الدم لو كنا نملك الدم، لو كنا نملك أن ننطح القباب، لسقطت المهزلة من قديم لكن الصمت كان هناك، عند تلك الشوارع المسدودة، هناك الحصار ولو أنه لا يبين. العيون المحددة كنت أجسها تنغرز خلف ظهورنا؛ ومن ثم لترسم خريطة التشويه.

بعد تلك المسيرة الطويلة كانت «مجموعتنا» قد استنفدت طاقاتها في مدارات اللاجدوى، وإن كنا نحسب ولا نزال أننا قد أرحنا عن كاهلنا حمولة زماننا. كان الإحساس بثقل العالم فوقنا يفتتنا ويجعلنا أَسْرَى منازعات، دون امتلاك القدرة على فضّها، على فكّ حبال هذا الأسر، كان متيناً جدّاً، ولم تكن السواعد ولا العزائم قادرة على فكّها، بله لم تفكّر في تقوية نفسها. الاستنزاف كان متداوماً، لكنه يتطور ليمتصّ النخاع ولتهو العظام على العظام، ليتم تغطية المدن الطفيلية والأرض المجذبة بسماء العظام المنخورة، ولتصنع من تلك العظام الأقواس والسرادات لينمو بعد ذلك بحصيلة من الطقوس البدائية، لن يقدم الشواء مع المسك والعنبر، الجلد اليابس على العظم والنخاع قد امتص، حتى النخاع الشوكي، من كل ذلك صنعوا مزامير فرافير من الجلد طبولاً من الحناجر المثقوبة أبواقاً وهللوا وهللنا وكبّروا وكبّرنا، وارتفعت الأناشيد لتحيي موسم النصر على المحجورين الذين لم يوافقوا يوماً على هذا الحَجْر — لكن هل بدأت المسيرة؟! الصمت الرابع في الأركان، والعيون تُبْلق فقط، وأنا ملقى هنا عند الركن في المغارة، كلنا كنا كذلك نبُلق بدھشة ببلاهة بلا مبالاة، هذا زمن الفرجة، السيد «عمار» صاحب السيرك الرائع ماهرٌ في ترويض الحُمُر والبغال والقردة وهي تُسَلِّي الجمهور النعسان أيما تسلية، لم يكن يهتم لوجود العروض الجيدة، المهم هو الفرجة، توفير طقوسها كاملة والعيون تبُلق، أما بعد ذلك فالشاحنات مهيأة لكي تُلقم كل فم يهْمهم أو يُدمم طوفاناً من الأوساخ! عفواً عفواً أيها السيد؛ فأنا فقدت النطق من قديم، لما نزل المسخ بمدينة النحاس، لم أَعُد أعرف موضع الشفاه، ولا كيف تتألف الحروف، لقد وجدتهم رُخصاء؛ ولهذا فأنا لم أَعُد أعبأ، وهم أيضاً ما عادوا يعبئون هي هم هن دور النمل فيالق الصراصير لم تُعد تعباً، اكتفت بترديد أهازيجها وممارسة طقوسها وشعائرها في عزلة عن كل شيء؛ فهناك الليل والأحلام والخيال والأحضان، الشهد الصافي، والأصيل والأنعام التي تحمل إلى بعيد، جد بعيد والعيون المرافئ حيث ترسو الأحزان والمآسي التي جمعتها ضراوة الإعصار على الرأس، بقية الأعضاء تسترخي تتهالك أتقعدُ قعدةً أبدية، ليتحرك الزمن ليجمد ذلك أمرٌ آخر، أو فدعني أيها السيد الملاحح المعاتب، دعني أنا هنا مستريح بين كأس وأغنية.

إنا مستريحون هنا بين الكأس وأغنية

لقد تركنا لهم كل أمجاد العالم!

أنا لا أقدر على الحركة فـ «هذه ليلتي وحُلم حياتي — بين ماضٍ من الزمان وآتٍ» قلتُ هذا الكلام وقالته الأغنية، قلتُ بعد أن كان الضوء قد رحل، اعتمدت الدروب، أعتم الداخل

والخارج ورحتُ أسلِّي النفس أو أعذبُها بالآهات، وأقول غداً، هذا القرن أو يليه. لكن ما تسَلَّل إلى النفوس أي ريب في أن أجنحة السور ستتهاوى، كان شعوراً أو حدساً ما يني يرتعش يوماً بعد يوم. لم أكن أطيع سماع نبرات التشكيك أو التخاذل. كان صوت الأب يتردد ليُبيِّن بداخلي كل الرغبات المحبوسة فتزداد ويسمعني كل تأنيب عندما أعلمه أن أجنحة النور ستتهدأ ذات شتاء ولا بد أن تسقط، بأن سماء العظام المنخورة خواء، بأنه وجود اتفق في وجود أكثر زيفاً أُريد له أن يكون، كان هو هم أكثر من رعبٍ يقتل صوتي. كانت الأصوات حبيسة المغارة تبح تصيح تنشد اختراق المجال المحصور، لكنها ما تلبث أن تصطدم بالهواء الخانق في الخارج؛ فالحصار أزمن وزعانفها استطالت، جلودنا تعطنت، فجمعت فوقها القشور والطحالب.

حاولتُ أن أفهم أبي معنى هذا وأكثر، لم يُرد يوماً أن يفهمني، لم يقدر ما أعاني، لم يُحس اختناقي ولا أراد، قلتُ له إن الأزمة ليست شبيهة بالتّي عشت، إنها ألم وأعتى وأنت بعض منها. لم يُرد أن يفهم، الخلق لا ينشدون الفهم!

سقطت الغشاوة على الأبصار، آذانهم تبتلع أصواتاً مزحومة بالثرثرة والطنين، أصواتاً هامسة مرتعبة من تأثير الطقس الخانق، يقولون إن أصواتنا ما تزال بدائية، وعلينا أن ندخل حلباتهم لتتعلم ونروّض على النطق، ونتعلم كيف تولد الكلمات، وكيف تصرخ الحناجر ولمن ينبغي أن تصرخ، عندما ستتنفس في الهواء الطلق وتلتذّ تنمتّع تعرف حلاوة العيش وربة الكأس والتباسها بالشعاع وطراوة الأفخاذ والنهود.

يا ويل اللحظة التي لم تستمر لتكون قروناً من الاشتعال، لتدبّ على التراكم فتزيد في حرائقه، ويصعد الدخان إلى فوق، حتى لا يشتّم أحد سوى الدخان، يجد الجميع أنفسهم في غمرة سحب الدخان ورائحة الفحم تملأ الخياشيم، ولتحمّر العيون لتجحظ، فلعل الصراخ تنقذ بلا هواده؛ ففي حركة الانقذاف يولد الصخب، تصحو الرّجّات التي انكفأت داخل أخشاب التوابيت، تتألق الفرحة التي أسبلت أجفانها، وديست تحت أحذية الأقزام. ذات يوم حاولتُ أن أنطق تحت قدم صرصارٍ ينتعل حذاءً مصنوعاً ومحاطاً بالصلب، لكن الصوت ضاع، حاولتُ أن أجد نفسي بعد ذلك، بيّد أن الحنجرة كانت قد تلوّثت، وكنتُ قد ازددت انضغاطاً، أردتُ أن أجعل الحذاء يتأكل، وكان ذلك شاقاً وعسيراً، لم أجد ناراً أحمي فيها ما بيدي من مسامير، وجدتُ اللهب بداخلي يكاد ينطفئ، وارتعبتُ، كيف؟ الخيط الأخير، هل يخبو الآن؟ ضاع الصوت في الزحام انضغطت بين الحِمَمات الموهومة! صرختُ في دوامة الصراخ، أكلتني التماسيح لكن كيف كيف يتم هذا ...؟

كنا نسير، مشيئة التحرك تتلعثم دوماً في أوصالنا، ونحن رعشة الزمن المكظوم، نحن الهدير المكتوم في ثنايا ماضٍ وحاضرٍ مُشيئاً. نحن انقباضٌ صاعق في مفاصل بشرٍ مشلول، نحن سمواتٌ وأراضٍ للعالم.

لا لعالم موعود!

كنا نسير تقذفنا الدهاليز ونقذفها، تبصقنا الشوارع، نبصق الأزقة والفواصل الخشبية والكراسي المحنطة، نبحت عن نشوة في حساب الزمن، لكننا لم ننتبه، لكننا أخذنا المسألة جدًّا في جد، بغير هزلٍ في لباقة، في ذكاء كما يأخذها الأغبياء، الأذكياء، الطرفاء، بمعنى ما، «قل لهم» فالعطش يضيء الآن، قل لهم أنا أقرع بإيقاع جديد، بفطرة تلقائية، من يفهم، هكذا، كنا نسير، رغم الوهدات، تحفر وتغالي وهذات تدعي أنها تجمع كظمننا واختناقنا ولغة الشعر والحلم فينا، لكن الوهدات آبارٌ في الداخل بالرغم من الخنق مفتوحة.

«ماذا يعني هذا النصر؟ مظاهر الفرحة، الكبرياء الكاذبة، يعني ...»

هكذا شاء المولى الكريم رب النعمة ومولاها، صاحب الحَوْل والطَّوْل، وماذا يملك العبد الضعيف أمام سيده وربّه يوم القيامة، يوم لا ينفع فيها لا ولا، ما علينا من كل الهُراء، لا تقل إن الأيام قبيحة؛ فأنا أعلم منك أن الأيام غريبة والعامل من يقذف في وجه العالم المسلول كل حقه وكراهيته، أن يتقدم نحو الواجهات المتشققة فيزيد في تشققها، ويعمر بؤر التناقض، قلت لكم، لا بد ونحن نسير أن نعمق تلك البؤر؛ فالشوارع لم ترحمنا قط، والأرصفة تقتات من أقدامنا، سيقاننا المتورمة. لا غرابة إذا كنا الآن نتلکأ في الخطوة في الكلمة، نتعثّر في المشية، لمّا نعلن الانطلاقة! لا بأس؛ فالثانية الموعودة زغرودة في دمي تهلل، تصنع خلايا السخونة، تلك التي تدبذبت إلينا في خطٍّ لاسلكي. ونحن نتلقّف جلسات رخيصة في مغامرات أكثر رخصاً، في تلك الأمسية والتي قبلها، في الأماسي التي جاءت فيما بعد، لا يعلم أحدٌ إن كانت الأماسي التي ستقدم، لا علينا من كل هذا فالأرصفة — أرسفّة لبنات، اللبّات، اللبّات تماسك بناءٍ لم يُرد أن يكتمل وتنحشر بداخله، لكن غفا داخل اللبّات يتجوف غلامٌ صغير — نحن ننحشر عبْر الأزقة والأسواق — نسعى لخلقه، ويزداد التجوف اتساعاً، أماناً، تتسع الأوشام.

قال ع: سأزحزح الأرض، سيؤلّد ملمحٌ ما.

قال د: أنا سأذوّب الجليد، أنفُخ بسخونتي في السور، ينكمش أمامنا الحديد والصلصال وتغدو الأرض مهادًا والسماء بساطًا، والأرض راحتٍ حسناً.

الله ... الله ... الله ...

وأنت تتذبذب، تتكون في الأزقة والأسواق، تنكمش وتتمطى في حلقات الذكر والسكون، تهجع في اللحظة، ترعش لدى اقتراب الحركة. وتلك الحركة دبيبٌ في أوصالٍ مسلولة، في أجنّةٍ مجهضة، تجد نفسك على رأس أهراماتٍ خاوية، تلك الأهرامات تُوهم أنها متماسكة، مشدودة لبعضها، حاولتُ أن أفهم حاولتُ أن أقف، حاولتُ أن أزيلَ بعض القشرات والمسوح تستطيع أن تحاول أنت وأنتم جميعاً.

ونحن نسير، كل الأقدام تألبوا، تأمروا مرةً واحدة، وجدنا ونحن نتنفس بصعوبة وسط كتبانٍ محروقة، ليتها كانت رمادًا، كان علينا أن نمد أنابيب خارج كل كتب كيما نتنفس، لم يكن ذلك ممكنًا، لا تملك بعد اليوم أن تنكفى على نفسك، تقضم أظافرك، تمتص السموم سموماً أكثر تسمُّماً داخل الكتبان المحروقة، لا تملك سوى أن تفرق أصابعك المأكولة، الدماغ العامر بالوهج، وهل تبعد النوم التناوم عن أجفانٍ معشوشبة تسعى لصنع وضعك، انكفائك الميت، أطلال الوجنة الخربة، أقواس نصر، ظلال رحابة، شموع للفرح والنشوة، أوه! كن واسع الصدر لا تياس، آه، أوه! تفاعل — ولو أن عيون الطائر عمشاء تسرق مني أوقات التمتع بالنور، وتسأل عن النور! قف الآن حول الاتجاه نحو مدارٍ آخر، الآن، الآن سأنام سنام لمدةٍ واحدة لآخر مرة سيكون الاسترخاء ...

لا غرو إذا كان هذا يحدث ساعة، لا بد لك أن تتقلص بمعنى أن تتجاوب مع تيار الزمن المنكمش، لا بد أن تدخل في إسهاره لتساوق بين نفسك وبين الدورات الهائلة في الحلقات الخاوية جدًّا، لا احتكاك فيها ولا تصارع، لا بد لك من التقلص وإلا فإنك ستنتهي مرةً واحدة، نعم أفهم أن تقول لي: نهايةٌ عاجلة خيرٌ من موتٍ بطيء، لكنني مع ذلك أدعوك بالحاج أن تتصلب؛ فكثيراً ما قلت بأن الحركة الواحدة جامدة في ذاتها، تلد الجرذان وأشباه الصراصير، تفرز الطنن والثغاء ... لعل الكل ينكفى على نفسه ويقضم في إعجاب أو استياءٍ منهار، لكنني دائماً كنتُ أردد على مسمك، وإن بتَّ غافياً لاهياً طوال الوقت، ترفض الاستماع لي مثلما ترفض سماع الزئير الذي خط للإنسان مجراه الصميم — كنتُ أردد: الحركة الثانية دائبة، ثِق فيما أقول، تمزق حصار الاندفاع المأسورة، تحقد ترعب تلغم كل الأدمغة تعلق المشانق في الساحات — أوه! لا تقل إنني أحلم ولو كنتُ لم أسلم

منه. هذا الحلم الكبير من العطايا من الاندفاعات لا بد أن يستمر، خاصة إذا برد المخ ولم يُعد ملتَهَبًا، خاصة إذا دبَّ التقلص، وانقذف الناس أمامك مكورين على أنفسهم منكمشين يقضمون أظافرهم وأشياءهم بالليل وبالنهار — معذرة يا صديقي الذي لم ترغب في سماعي يومًا، معذرة للجميع، الآباء الإخوان، الأحباب، المسحوقون الرجال الجوف في الأرض الموت، لا مناص من التسكع قليلًا في دهاليز الأحلام، لكنها هنا أيضًا باردة لا تعطي الدفء، ونحن من طفولتنا لم نقف بالأحلام، كان زماننا باردًا خاملاً جدًّا حقير، طفولتنا حقيرة، ليس فيها مما يغري، لم نملك إلا الطين المبتل وزوابع الغبار، اليوم تنعدم هذه الزوابع، أقصى ما تصل إليه أحلامنا في أن تغازل أعضاءنا مغازلة معذبة أحيانًا، ونظل نتأمل الخواء حوالينا — الإنسان كان منكمشًا والأشياء أكثر انكمشًا — وجود كامل يدور في مدار أجهزة تقلصه، إنه يدبُّ من قديم؛ ولهذا فنحن لا نستغرب كثيرًا، ولا نتألم حقًا، المثير والمقلق هو هذا الاستمرار، ولا تني تردّد كأن وجهي بارد.

وأجيبك: بأن حياتنا باردة كلها، الأمعاء أشد برودة.

وأنت تدّعي أن الأوهام تعشق في عيني، وأنني — من خلالها — أرى الناس والأشياء، وأنا أسقط على العالم كل أوهامي التائهة، تدّعي أنني سجين هذه الأوهام وأنها تفصلني عن الحقيقة والواقع، وتجعلني أعيش صراعًا داخليًا مصطنعًا، بين كافة العباد مستريحين هاجعين خاشعين، وأن الآذان مسترخية متلذذة للدغدة والطنين — تدّعي أن ما نعانیه ليس سوى فشلنا في مواجهة الوجود مواجهة «واقعية» واستلذاذنا لاختناقات وتوترات مُفتعلة. وكل شيء بعيدٌ عنا.

وتصرخ: كُفّوا عنا من عُقدكم وتأزّمكم، دعوا الناس يعيشون على أمزجتهم! فمعاناتكم باردة، ولستم إلا نباتات طفيلية على حافة الحياة؛ فكم مركبات عُقد تمشي على الأرصفة تريد أن تُقيم الدنيا وتُقعدّها في محيط كلماتٍ صغيرة ... وبعد ذلك تستعرض أفكارها وثيابها وأفكارها في كل مكان، وتدّعي بعدئذ أن العالم متواطئ عليها، كُفّوا عنا من هذا الهذر، دُعونا في أحوالنا نقطات من بؤسنا وضجرنا، من أيامنا من أوف! ...

تهوي كلماتك وصراخك في قرار اللحظات الميتة، تسقط مع الرجال الجوف في متاهات لا حدود لها وفي مستنقعات للركود، تشاهد الأشياء الجوف في متاهات لا حدود لها، وفي مستنقعات للركود، تشاهد الأشياء وهي ترجمكم، تسقط فوق رؤوسكم، دون أن تتأوهوا أو تتزحزحوا؛ فالفرحة لذيدة، والطنين تستلذه كثير من الآذان، وفيالق الصراير تعيش لحظة الفرحة الكبرى، أوه! أيتها الفرحة، إننا سنسقيك، نستمطرك، فانسكبي لتزيدينا ريًا

على ريّ، إننا فرحون لتمطري علينا راقصات؛ فحلباتنا وإن عَجَّت بالراقصين تبغي المزيد، ونحن نحب أن نرقص ونزغرد وترقص ... وأنا رفضتُ الإجابة؛ فجوابي بحارٌ وأمداء لا يحدها البصر مرةً أخرى، لا تطالبني بأن تتكون الحركة، هل تريد أن أقوم ببعض الحركات الرياضية مثلاً؟ أن أصنع لك دُمى ذات بطاريات تتحرك أمام عينيك؟ فأنا لا أرى شيئاً، قد تكون أعمق رؤية مني — هذه الكراكيز تؤدي أدواراً متنوعة وتنتهي، قوالب من الشمع ما تلبث أن تذوب وتتوزع بمجارٍ لتلتقي مع بعضها وما تلبث أن تنتهي في المستنقع الآسن. لقد فُرغت هذه الوجوه من المعنى وتلك الأنفس من كل إحساس، وفجأة أو دون فجأة حصل التجمد، وبقي الخلق يجهلون سر هذا التحنيط!

في مرة من المرات التي كنا نتثاءب فيها في الطرقات على غير هدًى أحسنا بأن شيئاً ما سيحدث وأن خزان التوتر بلغ منتهاه؛ ومن ثم فلا بد أن تقَع الهزة وأن تضجّ الساحات والطرقات ... ربما كان ما أحسناهُ هوساً أَلَمَ بنا. والمهم هو أنه بدلاً من الاهتزاز وقع التجمد التقلص سَرى مفعوله، كان يمشي تحوّل واقفاً، السيارات والدراجات والحرر والبغال ووسط الساحة تجمدنا في أماكننا، الأعضاء مسلوطة ولو أن الأرض تقيم الأقدام فكل الساحات عاشت الانتظار، بيد أن الزمهرير بركانٌ أقوى من الجميع، وأنا كنتُ مشحوناً من قبلُ ومن بعدُ، والتفتُ يَمَنَةً وَيَسَرَةً فبصرتُ الصخور تسعى نحوي، حلمتُ بأنها تواكبني، لكنها بقيت صخوراً — وهكذا تجمد كل شيء، وانتظرت، من يدري أنها نزوة من نزوات الطبيعة، ربما ضبابٌ غشي بصري، أو لعلني عميت فلم أعد أبصر. قد يكون وهمٌ آخر، قبل الذي حدث لي ذات ليلة عندما نمّت ويدي على عنقي ورأسي مدفوع في وسادة، غفوتُ وما أحسستُ إلا وأنا في أرجوحة أنغرس في التربة، أصنع الشقوق، وكان الزمن يُمر بي دون أن يحتك بي، أكاد ألامسه، يُصر على التهرب، وكان الخلق قُدّامي يتراءون سُحباً هاربة، متخرقة متغرقة، وأحسستُ الأرض تحتي كوكباً هارباً وأنا أدور حوله دون أن أقدر على النزول، واستعدتُ كل ما مرَّ بي من الحنين إلى الأجنحة الهمجية المتكوّنة في أدغال، وصرختُ مهووساً صرخت: إني دغل أيها الناس، دغلٌ كثيف، أيها العالم إنني دغلٌ حوله الجرذان تقرض والثيران تخور، إنني دغلٌ من بدء التاريخ يبحث عن مناطق الضوء، لم تمسّه الشمس، لم يعرفِ البريق، يعيش دوماً في الزمهرير، وكنتُ أدور والزمن أسرع دوراً، وأدور ويلهث في دورانه، أجري وجسدي سيولٌ من العرق دون أن ألحق غاية، أعود فأجري مستعيراً أنفاس الآخرين، وأحاول أن أبعد وبعد ذلك، بعد أن خُيل إليّ أن ألف عام قد مرَّ ولا أثر للدغل، خُيل إليّ أن التكاثر قد انبسط، وأن ألف عام قد

مرّ، كنتُ مشدودًا مرةً أخرى إلى نفس الفراش، والرأس مدفوعٌ في الوسادة ورأسي معلق! لعلّ هذا التجمد من نوع هذا الوهم، لكن التجمد الآن حقيقي، يمكنك وضعه على ما تشاء لتلمس الجمود وتسري في أصابعك البرودة المعتادة. ولنتأكد، تمدّد ككّك بصفعة إلى وجهه فأخر، تصفع وتقفّ وتلعنّ تضرب القفا، تهشّم الرأس والقامة وتتأكد لا أحد ينطق لا أحد يريد النطق، كيف لماذا؟ من يعلم، غير أن الشائع هو أن الناس مرهقون، يريدون العودة إلى أنفسهم أو لعلها فترة نقاهة، ومن الممكن أن تحت السطح غليانًا ما، كل الجبناء والعُهار من هنا مرّوا وما أحسّوا بمرورهم، أكلوا الطعام، تحوّلوا في الأسواق، مدثّرين بأكفانهم، ظلالهم توابيت تتبعهم خُلفًا وأمامًا. أردتُ أن أجري في العالم الذي تجمّد، لم أستطع فالسلام تكسّرت ورجلاي مشدودتان والبشر تحنطوا، لعلهم في القيلولة، على أن العيون مفتوحة، والحنجرة الكبيرة مشقوقة، والصوت في الداخل يرعد يفزعني أنا المنفي في مدن الصقيع والتحنيط، قلت لي إنك لا تجد بُلغة ولا نفقة، وأقول معك إني لا أجد إنسانًا، فهل تُسعفني بعد؟ هل ترتق الحنجرة ترفع الطلسم الذي سحر المدينة جمّد الأعضاء؟! يُفزعني الصوت الذي لم يصمت دومًا، يعتقد جبيني، يملأ فمي رغوّة وأقفالًا، يستفزّني، يدفعني إلى جهاتٍ شاسعة، لمن نُحملُ تبعّة التراكم والانكماش والتجمد، أُلست السندباد يُمخّر عُباب بحار هاربة من وجهة متأمرة عليلاً أيضًا؟ لست جوالاً تشغفه الأرض، أنا كنتُ قاعدًا هنا ولا أزال، كل ما يملأ ذهني الآن أن الأرض سقطت في حفرة التحنيط، وأن الزمن انهار في لحظة اصفرار، وأن السنابل في ذلك العالم كانت خاوية ولا تزال والمطر لم يسقط والشمس لما تشرق والمجرّة في سماء ثامنة ...!

هل العين يشدها ما تقع عليه في الآن، الآن كثافة من تداخل الوجوه والسيقان والأورام — الصوت المفزع في الداخل يجذب إلى قلاعٍ محمية يتنازعها الغليان والبرد، يصفد الغليان الشوارع والأراضي، الورم أفعى تسعى على الأرض تتسلق الحيطان، الجلد منكش وهناك كان الجلد ملهوبًا. ما طلبتُ من أحد أن يتصدق عليّ بصوته، لقد كان لي صوتي، كان لي الوجود والامتداد لكنه الآن قصّ انكمش، إنك حتى ولو وعدتني بأن تجعل الشمس على يميني والقمر على شمالي، فهل تعيد إليّ ظلي؟

فهل اليوم، نذكر ذلك جيّدًا، وحلم الفتوة ما زال غصًا، والرأس مليء بالأوهام، والدنيا رحابة، والعالم مليء ذراعيك، عندما أخط القدم على الأرض وأصنع الخطوة أسمع ارتجاجًا ما، يتولّد الصدى في الجهات الخلفية، كان الالتهاب في العيون ولم تكن الجفون مغلقة أبدًا، كل الرجال كانوا واقفين، كل الرجال، الجنازات المهيّأة قبل الموت، كل الرجال حرقوا جثث

الواجفين، كل الرجال خرجوا إلى العراء، كان ذلك الحلم الذي يلمع برأسي في كل هجعة خفيفة، وأحلم أنني أصنع المجازر بالقردة المسوخة والأقزام، عشتُ هُنيهة من الولادة — خرجت الأجنحة من الأرحام والأطفال يحيون لحظة الفرح، كنتُ فرحاً، مرَّ قزم سحقته بحجرة. جاء هو من بيته خرج الآخر من النافذة، جاءوا كلهم من الحقول من خلف الجدران ومدارات الاصفرار، تجمَّعوا دوامة اشتعال من جبين الشمس كنا نريد رأسه حياً أو ميتاً لكنه تقهقر واختفى، هناك بعيداً بعيداً ... كان الوهن وذهب الوهن وجاء الوهن، الحنين إلى الاسترخاء، أين ظلي، البرد القارس، هل تذكرُ عندما كنا مشتعلين، هراءُ ما تقول إننا ما زلنا نقيم قداساً يومياً للشمس، لكن مشتعلين تنبذنا، ما الذي دب إلى جفونك؟ وما الذي أصاب الحنجرة؟ أراها مشقوقة والصوت النزيف أسمعُه مشروحاً وقامتك تقلصت وكلامك تجوّف، لماذا هذه الأشياء البشرية جامدة وأنتم وقوفٌ في لحظات في الطرقات؟ ونُهدِّد، ولو أردت أن تُقهقه فلن تستطيع، فيما مضى كنا قهقهة، الحزن والسأم نُقهقه. لا حركة سوى العين الدائرة في محجرين غائرين، سفنٌ معزولة تُطاردها الرياح، تبعدها. حدَّثني عن الضوء والجلبة، عن انزلاق الصخب على سَكِّ الفولاذ.

حدَّثني عن إنهاك الخصور بعيد الأسحار، عن نفور العروق سخونة الدماء في حلبات «الطوريرو» الدم في الشرايين المشرَّحة، صدأ الحياة في الأجسام المصلوبة، سُكنى الداء والدواء في الجسم العليل.

حدَّثني عنهما:

الضوء والجلبة، أنا وليدهما، الزبد المتجمع من بحَّاتهما تناحرهما؛ لأنَّ التناحر في الأرض موثوق إلى أعناقٍ لم تُرد أن تُقهر، لأنَّ التناحر في السماء قد همد، وبقيت العضلة منقوشة على أسوارٍ تتعالى لتصنع قباًباً على أرض موات، أسوار منهوكة، أين الساعد الدماغ الذي يثقب السور يهد السور، تتسوّس المكانس، يُصقل السيف في الغمد، يحيا التناحر تخرج البحَّات مقاذف خناجر، لأنَّ النعاس رنق في الأجفان، كُتِل الصدا تكاملت، وسنامات النوق الحمر ذاب شحمُها تحت الهجير. وأين صهوتك أيها الفرس الأحمر كي أركبها، كي أمتطي وأحمم منك، أجمح يكون الجموح الذي ما عرفته أزقة ولا عُرف المخلوقات التائهة، ولا النسور المقبوضة، ولا الكواسر، أركض، أهرُ صمت الحجر في الشوارع التي لم تُرصف، في المجاري التي برد فيها الدم في ليالي الضجر والصقيع، أعلم الركض للأطفال الذين يجرون القصبات على التراب ويحلمون بفروسية باهرة، ويبرد وهجُ الحلم عند بداية المسير، أعلمكم الركض فهو عندي يحفر الأخاديد، يحاصر المدن

التأهية في القرنفل والبخور، تجتمع البحار في صراخٍ وعنْفٍ مهووس. الركض عندي يُلغم الذاكرة، ذاكرة التاريخ المتعفّنة والزمن الأسيان وتلوينات النشوة المكذوب عليها، غمامات العطر لحظات التيه أركض الكراسي على الكراسي وعلى السرر المنهوكه والواجهات المصقولة والذين يستحلون تحت القباب، خلف القلاع، سوف تُقرع تلك الأجراس التي على الأعناق عند الركض، كل الأجراس في كل الاعناق، اقرع جرسك يا بائع الماء المغارة استحالت حمحمات والأجراس جمحت والركض يُزيل شلل الإنسان فهل تفهمني؟ هل تعي ما أقول؟ الناس قد يرتعدون يرقصون هلعاً يصبحون بهلواناتٍ كما هم خلف الأسوار، رائغٌ رائعٌ جداً إنهم إذن في الجلبة، ليكن الجميع في الحلبة، والرفاق المدوّخون يلامسون ذيول الأفراس التي جمحت لا يجرّءون على القفز الامتطاء معذرة إنهم يقفزون، لم يجمعوا قط، وهذه الدوخة أفعى امتصّت الدم وما نحن تائهون في دوامس المغارة، تتناطح رءوسنا داخلها، لا تستنجد بالشمعة أو القنديل، دون نفس ما عدا القطرة التي تبصقها الأفواه.

سأم سأم هذر أقراص غيبوبة.

— حدثني إذن، حدثني عن الضوء والجلبة.

أنا وليدهما نبتهما المشكوك والعالق، أريدهما أن يُحिला عثراتي انطلاقاً، كَبَوَات الرفاق جموحاً أعنف فالجليد سكون والصخب حركة القلق تذر والتذر حركة، حركة في الصوامع، حركة الجموع المستاءة ولتتحرك الأرض التي جعلت مهاداً ولتلتفّ أعناق الرجال بأعناق النوق والأفراس النافرة، ليس ذلك المرفأ البعيد ما نبحت عنه، ليس بياض فخذين مرسومًا في الورق والطين، تأكل صحنها اليومي بعسر شديد، التي اندحرت ولم اندحرت؟ الصهوة التي دُبِحت والسنامات الذائبة، أمهاتنا اللواتي غَدُون عاقرات وما عُن يلدن سوى الشح وعُلب السردين هل يدغدغني النيون أيها البلهاء؟ هل يقدر على شل كهربة الدماغ، امتصاص الشرارات المتصاعدة بلا توانٍ، والخراطيم كلها لن توقفوها، كيف يتمّ فصدُ العروق النافرة والأحداق مشدودة إلى عين الشمس؟!

هل يُفقدنا النيون البشرة أيها البلهاء ويدخلنا لعبة الاجترار والخلط المقيتة؟ نعرف اللعبة جيّداً، لقد علمنا السيرك نزع البهلوانات خلف الكواليس وخارجها — وأن الشوارع والسرادقات غاصة بالانحناءات الدائمة لأعمدتنا الفقرية، لا حاجة للصنوج أو التصفيق للانحناءات المباعة برخص الفنارات التي تفرغ النيون في قنوات المدينة وببطء، تظل في بُعد عن دوران الأضواء الصاحية هل تغافلها؟ تظل في بُعد عن المناطق التي تتسارع خلف صمود لا يفتر، وتلهث على الوجوه الجذباء، ما على الشاحب، على تجاعيد القردة الماهرة.

قَفِ قَف، سقط النيون بوجهي بذاكرتي، كُسرت الواجهات الخلفية قَف، الحركة المجترّة الأولى، تفصد العروق، تُببس الجلد، تخدع العين بها العين، وتستجدي الكلمة الانحناء والعتمة الذاهلة نيوناً موجهاً والفيلق المأسور اندفاعاً محاصرة تسقط في الحلبة لتكون الممثل والجمهور تجدد الأنف لتبقى مكانه ثقباً، تعدم النكهة تقيم الصلاة وتكبح الاحتجاج تُعتم الضوء تزرع النيون.

الحركة الثانية الدائبة تُطلق الأسرى، تزرعني في الحقول، أتجاوز ممكني، نتخطى جميعاً أكذوبة المستحيل، نطرح ما رسموه في كل الأسفار قدراً لنا مصيراً، أنسى لأتناسى وفي اللحظة ذاتها أفجر عبوات البنادق في الوجوه التي جدعت أنوفها كي تسمع اختناقاً وصرختي، تُبعد الشبح، الوثن الأوثان من الساحات.

ننزل إلى الشوارع مهرجاناً.

تهتز الصنوج تلد العواقر، يتجمّع الصدى في الفضاء الرحب، يخرج المتقربون من وراء الأبواب، يكف أبي عن مضاجعة أُمي لنسيان همومه، يخرج طفلي الجريح القلب واللسان ليصرخ ...

لكنه الهذيان كل هذا يمزق يشحن الداخل بالهوس وتتمطط الهلوسات عذراً للمهووسين إذا كانوا صُحاة أكثر من اللازم، يبصرون أكثر من اللازم، أنتحب الآن على الذي لم يقع على الكائن الآن، على الذي لم يقدر أن يكون، هل هي ابتهالات عند مدخل المغارة؟ أيها السادة انتبهوا، الحركة الأولى تبتدئ، لكن الاجترار يتبعها، لا تنتظروا بعد هذا أن يحدث شيء، فقط انظروا، وتأملوا جيداً، إنه مشهد من الحلبة المتداخلة الأشكال، أيها السادة إننا منكم لسنا إليكم، من أرحامكم دون أن نعود إليها.

انتبهوا وكمّموا أفواهكم كما هي العادة ...

الرحلة الآن ستبدأ في مغارتنا، مغارتنا نحن، مجال فسيح يتسع في فترة طويلة من الزمن وحيز كبير من المكان، بل إنها تتمدد لتكتسح ما يقع على جانبيها، لندخلها ونهوي بها في قاع القارورة إنها تلهو وتعبث تطرب تفوح تدندن تمرغ وجهها في بحيرة النيون تُفرغ سأمها في قنينة وبين فخذين تنبش في الورق والطين، تأكل صحنها اليومي بعسر شديد، تنبش في الذات والآخر، تجمع اللحظة وأختها، تغتالها في كأس غيبوبة، تغتالها في هجرة عمياء، إلى أين أيتها الفيالق المأسورة؟ ما هو المد وما هو الجَزْر؟ وأين تمتد مسيرة الجبين الساخن القلب المقبوض أين تتألق المجرة ومَن أكون متى أولدا؟ يتجدد العصب المفصود، تتختر اللحظات يرتفع الجبل الذي استوي بالسفح تنفجر داخله الألغام تتفتت

الأدمغة، النوارس الحزينة، الحزن ابتلاء، الحزن في الدم سقم، اسمع لكك لا تسمع، الكأس تنفذك من مدار الازدراء من تفاهة الأشياء — إنها المغارة المفتوحة المسدودة وأنا الآن أندحرج أدخل الجبة أخرج منها عاريًا لأبحث عن نفسي في الظلام، في حلقة الوجوه، الأجساد الغائمة، لا أجد أحدًا، هل ذنبي أم ذنب الفيلق المأسور ... أتعثر عند المدخل مدخل المغارة، والألغام في كل مكان، في الأحذية توجد الألغام، تسَلَّتْ خَفِيَّةً عن الرُّقَبَاء، الحركة الأولى مُغْرِية في البدء، لم أدرك كيف أتخلَّص منها وكأي قرد تخلَّصت، وتقدمتُ بتؤدة، أنظر يمينًا وشمالًا، المقاعد مملوءة، كنتُ أبصر بصعوبة، مسارب المغارة متقاربة، وليس هناك ضوء ... النجوم بقيت في الخارج مع أضواء الغربة في المدن الغربية، أتقدم بتؤدة وصعوبة، أذكر أنني خفتُ على نفسي خفتُ على الذين كانوا برفقتي، نذكر جميعاً أن الحَمْل كان ثَقِيلاً وأن الأكتاف منهوكة دومًا لا تُطيق حمل بعوضة، متعبة بنفسها، ما الذي أعيأها؟ وماذا يُعيبها ويُبْهكها؟ أسئلة تحير جدي أكثر مما تحيرني، لقد امتلأت الأنابيب بالصدأ وتجمع الثقل، الذين كانوا برفقتي، رفضوا أن نتقاسم الحمل، رفضوا أن نعبر المغارة خفافاً لنصل إلى الوجه الآخر حيث مناطق الضوء مزروعة، أو ننشر الضوء في ليل مغارتنا — ليل المغارة طال وعيون «ميدوزا» حجرت الأعضاء الفقرية، والدم ذلك الدم الفوار برد، تصوّروا أنه قد برد فلا تكون العروق نافرة، لا تنفر العروق، لا يجمع الفرس الأسمر تحت السموات الرمادية، لا يحمم لا يكون الركض في الساحات والحقول، لا أعلم الأطفال كيف يدوسون على الضفادع والأقزام، وشاربي الدم والصديد، ليل المغارة طال، قعدتُنا طالت، أوصالي تتفكك والحديث الآن يدور ...

في المغارة في اللحظة التي تاهت وقريبتها التي وُئدت ومادت في تلك التي انحسر عنها الموج والأخرى التي تدمرت في الإعصار فما انجذبت إلى ساح الضوء في المغارة حيث كنا في الماضي وحيث نرجو الساعة ومن أيام طويلة، وحيث تجمّع الأصحاب والخلآن في الزوايا مصابيح والسماء بنجوم غائرة والأرض فوقها فاصلٌ خشبي أفعواني ندور معه أنى دار — لا غرو فالدنيا دائرة في المكان تتقابل مرأتان تتقاذبان الأجسام المترنحة والثابتة ... قف مكانك لا تهوّم بعيدًا، اللحظة توجّب أن تكون هنا، لكنها المغارة، منطقها الذاهل يجعل جيبني يرشح، والنظرة ذاهلة في الأحداق وأنا أسير بلا شموع فكيف تريدني أن أبصر الطريق إلى المكان؟! الدهاليز مُعْتمة ولو توفّرت المصابيح في الزوايا يا أصحاب، وكانوا كدأبهم كل مساء، كلُّ إلى جوار الآخر يهمس أحيانًا ويصرخ أحيانًا في الفراغ، ويُحْتَقَن الوجه، وتسري الجرعات، تسري الجرعات تسقي يبوسة الحناجر والأمعاء — كنا جماعة

واحدة يَضمُّها الوهم والحزن ورؤى فجرٍ أغيّش، ندخل جماعة، ندخل المكان، فتسلّط
النظرات وسرعان ما يقع الاحتلال، وتتلّف الرءوس بالتتابع، وتنقسم الجماعة مجموعات،
وندور — ندور يُحتقن الوجه يذهب التوتر لحين.

كوجيتو حافي القدمين

وإني أحس بالتضخم، أحس بالانتفاخ في الرأس، والهيجان أين؟ ويأتون ليُبينوا عن شاراتهم، ويقدموا إشاراتهم، ولا يفهمون أنني عييتُ من الضوضاء، وأن الضوضاء دفينة قعر القنينة، قصدوا تدويخنا بها، والدوخة أعصرها من جموع القبائل والأمم المنهوبة، التي هامت بغصصها، وشلت فيها إرادة الانتقام.

إني أحس بالتضخم، معذرة، وعفواً أيها الصحابة والأسلاف الكرام. نحن تضخّمنا، بعد أن تعرّينا، تعهّرنا. هذا وجهنا مفتوح إلى الشمس تلقاء الشمس والعالم يطردنا، مرحى للمطرودين والمطاردين من رحاب الشمس. ويقولون (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) اشرب كأسك، وهاتِ دوختي، وهاكم دوختكم المستعارة. أرفض تأشيرة، جوازاً إلى كواكب من ورقٍ مقوّى، عندي الكواكب المدوخة، عندي الاشتعال، عندي الحرارة التي تشترونها بعملاتكم الصعبة، نحن السلالة الساخنة أبداً — وألّقاك أبد العمر. ماذا عندكم من تحدياتٍ أخرى؟ ظلي الذي هرب لن تحصّله، لكنني مشدود إلى كل إعصارٍ محصور، بلا تأشيرة أو جواز أو انتحارٍ رسمي بعد أن تضخّمت.

كنتُ أسير بعد أن خرجتُ من السرداب، لا بد أن أمشي، القعود تحنيط، التحنيط نظريةً فرعونية شللية، وهمُ الخلود، في الذاكرة بقيت الرحلة، وأنا تولّهُتُ في حَمَامِ نفرتيتي، ولم يُعجبني ريشها، ففضّلتُ أن أمشي، وها أنا ذا أمشي بعد أن خرجتُ من السرداب، عانة على الوجه في الشوارع، حدّقوا جيّداً، لا أخجل من إبراز عانتي أو عضوي أو أشياءي السخيفة التي تعتدون بها، لا قبل، فلسفة ما بعد الأشياء، أحاول أن أدرسها، السرداب الطويل، حُلم رغبتُ في توليده، كان عندي تجسّماً لمأساة دروبٍ معتمة احتكّت فيما بينها وصنعت منها أقواساً، فكانوا يَحْنُون الرعوس لأن السقف أدنى، وسقفي أنا أعلى من أن تمسّه الرعوس،

بلا سقوفٍ مرمرية مرُّوا لكن بعد انحنَوا، تثلَّجَت أصابع البعض، والرعدة في النخاع، من الخوف، الهلع، الفزع — العالم رعب، الشارع تضخَّم في عيني. لكن هل أصبحتُ رعباً حتى ينظر إلى عانتني كذلك. قف، تشمَّم عبير ورودٍ مقطوعة من حدائق عطنة، لا شيء يشدك، أو تتعلق به؛ فكم أحببت أن تغلق على غرفتك ونفسك بالقنديل وتدور العالم على أنملة! وترقص البهلوانات في كامل عُرْيها الداخلي، لتستريح من الضوضاء المفتعلة، ونأوي إلى سُررنا نستهلك طاقاتٍ مخزونة من أبد الغرائز المشحونة في بواخر معترضة خلال الرحلة، قفوا، أنبِّهكم، أن الأمر بهذه الخطورة، بلا قرصنات وبها. لقد تاجروا في أعصابي. والآن يريدون قرصنة ما تبقي من أنفاس المسيرة، بعد أن افتقد الطعم، واشتد قضم حشائش النهر، والنهر لا يجري في الشارع، إسفلت الشارع مشبوح على الجثث.

لأنني تضخَّمت، ذكروني دائماً بحكاياتهم، في شوارعكم، ذكروني بالاستدراج والاستخراج والاستفزاز، أو بتسويق ما قبل البدء، أو بتسويق العشائر برُمَّتْها، أو مخاطبات مؤنثة متبوعة بصفعاتٍ باردة، ونافذة دائماً مفتوحة أمامي، أشرب منها ماذا؟ وقفة رجلٍ عابر ذي نظرة تعني أنه عابر دون أن يفهم، ولو فرضنا أن الفهم حصل فإن الظل ضاع في مقهى عابر، وأن العبور يأتي بعد كل التخمينات والتفاؤل والافتراض والابتهاج والنشوة المغتالة، سواء سواء كبير، جدلية في معطف من خيش وسؤال آخر في مهب الريح المنسية و... و... وقهوة مرَّكة أيها النادل النذل النذل كي أفهم بعض ندالة الشارع الشارع — هل تأتي عندنا مساء؟ لدينا قنيناتٌ من الويسكي وشرائح من اللحم المقدَّد وبعض السيقان للترويق. لا أنس أو أنيس، إنني كائن متضخم، نُعجبني وضعيتي، دون استسلام بلا أنيس، حديث الناي والجندول في رقاد مسمعي، صخب الهياكل والعجلات. استهلكوا البطاريات. يحتاج الأمر عندكم إلى تفسير؛ لأنهم نصحوكم بالفهم (الفهم الفهم فيما تلجَّج في صدرك) صدري طاحونة حنطة مصادرة. قف — سعاد أبحث عنك، لا أتوقف عن التيه في شوارع المدن العارية، أين أجد وردة اشتمَّت من أريجك ذات يوم؟ إنني مخلوقٌ رومانسي، وأي ضير في ذلك؟ غير أنني لا أسرق خبز الآخرين. وصدري مطحنةٌ صدئة. عيون حبيبتني، وطن فراشي، وحيًا الله العرب أئمة القبلة والقبلة، قائل قال والبقية آتية لا محالة. لستُ مسئولاً عن مجازر الشارع عند ازدحامه، خوائه، بهرجته، هوله وسخفه، حنيني الذي ضاع في تيهه، مُخي المتناثر في ابتهالات الأشواق الصاعدة — ساعات ذهبية، أقمصه، ربطات عنق، جوارب مستوردة، فروج مستوردة، انتبهوا، فرصة قد تضيع، آخر عطر في صالونات القمامة، أول قلعة سقطت، آخر قصر بُني، إليكم الأحلام بأزهد الأثمان، استدراج لنوم

عميق للمؤرّقين، شكلاطة محلّاة، راحة الحلقوم، حقائب جيمس بوند وأخرى دبلوماسية،
عُلب حديثة من الأفكار الثورية؛ اشتراكية، سادية، مازوشية للبيع، وطبعاً بأبخس الأثمان،
ونشكركم على انتباهكم وإقبالكم المنقطع النظير، ولنا موعدٌ بعد كل انتحار.

«وقوفاً وقوفاً أيها المشردون، يا تُرى، هل تسمعون؟» في عنفوان الضوء كان
المسير وطابورنا جبهة فولاذية، وارقصي أيتها الأفراح المخنوقة، وسمعنا أطلعنا
هاكم عقدنا، بعد أن فتحنا الأضرار وبالصحراء تعلقت. في عنفوان تضخّمي
ظهرت لي الصحراء، الرمل بين الأيدي وعلى الواجهاً ينسرب، صحارى معلّبة
في شوارع بالمجان، مخلوقات من «الشوينكوم».

ولما بلغت النيون لزم لي بعد أن تعرّيتُ أن أمارس عاداتٍ علنية.
في مدن العراء، وتحت أسقفٍ ميتة، رحتُ أتشمّمك، ألحس منك الضوء الأسى، وأبحث
عنك يا ظلي الهارب، أبحث عن خطواتٍ هربت فيّ إلى الخلف، وكنتُ أجوس بين الأرزقة
والسراديبي، أحاول أن أضع قدماً على الأرض، بصمات أصابع على الإسفلت، وأجدّد أضبط
خطواتي، وهل تستقيم قامتي؟ كيف أبعث ظلي في المدن المتشابهة في المنعرجات والأرزقة
الملتوية بداخلي، وأتلمس فلاتي والمدن في آخر البعد؟ لا شيء يعطيني ذلك الوصل الغريب
الذي ما أفتأ أشد نفسي إليه بوشائج من عنفٍ وصمودٍ ويراهم الآخرون واهية. أيها الآخرون،
ماتت نفوس الرجال، دُبحت أكباد الأمهات والأطفال، لا أسمع سوى حشرجات متتابعة
بين الصدر عند اختناق شرخ الحنجرة. كل الحناجر بُحت عن الأصوات بُحت، كل الأفواه
يبست، والألسنة تورمت، مضارب لنواقيس صدئة، افتحوا آذانكم قليلاً، وشمّعوا الثقوب،
أنصتوا، رحمكم الله، أنصتوا لعنكم الله، الأمر سيّان، وبعض الشر أهونُ من بعض، فاللعنة
والرحمة تعادلنا في أمّاخٍ ممسوحة، ولدى جثث تعفنت من قديم، وأنا تعفنتُ من قديم،
أنقذوا واحداً من مصير الجثة، أبحث عن ظلك الهارب منك في مدن العراء والشمس فيها
مكسورة، والنجوم بضائع رخيصة لسماسرة وباعة الليالي الباردة، يا ظلي البارد، تسحب
من إشراقات، من ضبابٍ مقموع في دنانٍ عقيم الأرحام، ماذا ينبغي لوقف إزهاق الأرواح؟
فلا ولادة من دنانٍ عقيم، لا ولادة تحت تحت مدنٍ متشابهة تأكلها العادات السرية والعلنية،
وأصابع تمتد محدّدة الأظافر تغوص تذبّح القلب، تذبّح العين، تغدو هذه زجاجية، عيناً
زجاجية، من يُبصر بعد؟ اتركوا الدفء في حساباتكم، اتركوه في أروقة تملؤها المصابيح
والقذود المياسة؛ فماغى أتون حرائق، لا برد لا سلام، لا ترّهات ولا خرافات؛ فالغليان

الحقيقة ناصعة، وأنا والظل الهارب طريدان. لا تأوينا أيها العالم الخرب، طريدان من بلد بلا شمس، بلا تيه، بلا نفوس محبوبة بالسخونة، ممتدة في العرق، مغروسة في الشجر في الورق في الطمي، في العيون الحلوة، تنظر نحوي، تشربني في ضحكة مرحة، أشربها في صفاء نغمة حنين إلى البكاء ولا دموع، ألا فاشربني أيها البحر؛ فأنا لا أجذك، يا ظلي الهارب إنني في الرهان. من يمزق ستائر النسيان؟ لا أريد أن أنسى، حاولوا إرغامي على النسيان، قتلوا في الضحك والبكاء، لكن الجرح أبد الحنين في مدن العراء، وتحت أسقف مينة.

كان عليّ أن أدخل سرداباً طويلاً تجمعت فيه الأجسام زرافاتٍ وأكواماً، بلا تطويل، من الغرفة إلى الزنزانة إلى السرداب إلى الأجسام التي انتظمت، دخلتُ وسطها وحاولتُ أن أمُرّ جلدي؛ فلقد كانت مليئةً بالثقوب، حُفِرَ تبلع فهل تمر؟ أنزلق ولا أجد لي مأوى، بحثتُ وخاب الظن في ليل التذكار، وعُجْتُ على الأحباب فلقيتُ الأبواب موصودة، والأبواب بوجه الريح موصدة، وحبيبتي ما بالها لا تبين؟ وأنا في السرداب لا أُمِر، وهذه الأجسام احتجاب، ممراتٌ مقفولة تُغري بالمرور، يَلْذُّ لي التحدي، وحاول أن تغلّت بجلدك.

إن تلك الجدران تحمل حقيقة الزنزانة، والرجال الذين مرّوا من هنا اختنقوا بين القضبان لما حاولوا إسماع أصواتهم، لم تنج سوى الأسماك الطائرة وذوو الجلود الزئبقية، وأنتم جلودكم مدبوغة ووجوهكم محروقة، ولا مكان فيها لم يتشوّه، بُقع جروح بثور من ألف الأزمان؛ فلا منطقة سليمة يمكن أن تقض أو تنسل عبر الثقب المفتوحة دوماً، أنتم لم تفرّوا، وجدتم أنفسكم بدون مفاجآت في الزنازن، والتاريخ وراء، والسخف أمام أمام، هل يمكن للعهر أن يستبد لهذا الحد؟ استنكار لا يفيد ولو أنه عالق باللسان، وكيفما كان الأمر فقد وقعت، انكفاً الميزان، لا ضبط، وليس ضرورياً أن تعرفوا أعمار الخذلان، وبدلاً من أن أنكمش فإني غُصت، غَوّصي الذي ضاع مني لما انقطع كل شيء لمحّته يعود، فاهتبلتُ اللحظة، قلتُ أودُّ الغوص لعلني أستدفي يا زمن الصقيع، لعلني أحلم يا زمن الشّح، لعلني أحيأ بعد موت نسيان — ولقد وهبناك ما شئت من الأرواح، فاصنع لنا الحياة فجّرها أو — أوجدها ولو بالسحر، ألسن عريقاً في الشعوذة؟ من يبيع شريانه للديدان، يعلق النملة، يحوم حول الضوء؟ الصرصار، وليعلم علم اليقين أن صفارة الإنذار وقوافل الدسم والفرع وأسماء التخويف والتقريع قابضة على فناجين القهوة — وبلهجة أمرة قال صرّف فعل خاف في المضارع، قلتُ في الأمر إذا شئت، كانت صفارات الإنذار تصدع رءوس العباد، والسمع أين رحل؟ على أيّ فأنا أجهل إن كان هناك ماضٍ أو مضارع، إنما الذي أعرفه

وتعرفونه جيداً، دون إنكار أو تجاهل، أنكم فقدتم ماء وجوهكم المفعول فيه، من أخطر قواعد نحو العالم المنهوب أو الثالث أو الهابط أو الساقط أو النعسان المحنط، المفتّض، المبارك مثلاً بركَ الجمل والإنسان، لتسمه المفتوح السراويل، ولا ننسى — حفظكم الشيطان — لعاصفة حلبات الفرسان قلق الأعضاء أراضِ وسّموات تتخلل قرب الدم المعلقة على شَمّ الأسوار وشوامخ القصور الدغل الكثيف لغاباتٍ همجية، وحيّاً الله العرب وكان العرب وكان الله سميحاً مجيباً. وبدون تردّد الكتاب الأحمر لماو، ودم لمومبا لم يجفّ، واغتيال الإنسان المغدور تنبض مع دقة قلب والزنزانة، آه! أتلّمس الحنجرة، ألين الحبل قليلاً كي أتم صراخي؛ فالرفاق نسوني في غَوْصي لما نسيّت الزنزانة، وكيف ينسى المرء أقدارهن؟ قال جدي المشفوع بذكره سألتُه عن سبحته إن لم تكن زنزانة فجاء جوابه: الله حيّ الله حيّ، وعلينا أن ننزل قليلاً حذاء الجدران؛ فالبرد قارسٌ هنا وبلا امتنان فنحن في الزنزانة، نحن لا نلتفتُ إلى بعضنا، نجلس والرأس بركان ومرمدة، الآن تحت البركان، هل نزع أننا سنصنع اللحم، وفي الزنزانة؟ وأنت هناك قعود والدنيا حواليكم قوس، الناس هنا، أين؟ لا تسأل، ولم أنبس — الداخل ممسوح، ولستُ أملك بديلاً لقلق الأعضاء والفوّاة المفتوحة بلا انقطاع، لستُ أملك بديلاً لأسفار الذاكرة، ويا ليل التجواب، أعطينا نجماً من ليك؛ فنحن لم نقدر على إمساك الضوء؛ فالداخل ممسوح، لا نتوء للقبض والتعلق، والأمس هو اليوم واليوم هو الأمس، وقهوة الصباح تشبه قهوة الظهيرة، لكن وأخيراً بعد أجسام، عبر جثث لسرداب، تجدك مرمياً بلا اعتناق، في زمن الأصفاد، على إسفلت الشارع — قفوا جميعاً، سنمارس عُرياً جماعياً، أيتها السيارات الصواريخ ناطحات الكواكب، علمك أعلم، لنمارس عريناً فوق إسفلت سمواتكم المبحرة، فماذا تملكون غير التسكع في النسيان والدوخة، في الغيبوبة، الاضطجاع على سخرياتكم؟ كفى سخرية قهقهة، انقباض ملامح. ماذا يُجدي قلق الأعضاء؟ ها أنا ذا، ها نحن، ها أنا ذا، وها نحن نهزأ بلا علوم للحضارات المستوردة، بلا صواريخها وعطرها وحاملات النهود، أعضاء منتفخة في وجه بلدٍ مبقر، شموخ اعتلى الأسوار هل أسقط القلاع؟ اسأل الريح واشرب البحر إذا أمكنك! لكن هل تقف معي؟ من السفح يبدأ مسيرنا، ولا تسلّني عن الأجسام في السرداب، أو عن مغاراتٍ غير مسكونة.

ستعرف في الأوان المناسب، لماذا يمشي الناس حُفاة الأقدام، إنهم حُفاة الأقدام، كل الوجوه كذلك، والآن بلا تداخل وبه، دقيقة وأعود إليكم، سأهبط أغور في السرايب، ستقودني إلى ... هل يجرؤ الناس على المشي حُفاة الأقدام عراة يمشون؟! يا أقواس قزح كأس من «الروح» من فضلك، انبطحوا!

﴿لِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِلَيْفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ فاعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف — واذهبوا فلا خوف عليهم ولا أنتم تحزنون — إننا محزفون، لقد حرّفنا كل شيء؛ فقد ابتدأ رجلٌ ما طريقه، سار ومشى وتقلّب مع الأزمان، وغنى مع الحزن والمزمار، وإنا لنستعيز بالله من كل ما يُنسب لنا من تحريف وتخريب ونحلّ وتزوير يا عباد لإيلاف قريش، وابتدأت السلسلة امتدّت في العصب، وهذا اللُّهات لسانٌ يسري في سبل التاريخ، فاحترق احترق اشتعل في الشرق أو في التيه؛ فأنا بعيدٌ عنك لن أماشيك، ولقد أصابنا مَسٌّ، مسسنا، ولتنهّد الجبال على الجبال، على الجماجم والخرائب ومزابل الآلهة الطيبة المطاعة ومراحيض الكلاب. هذا بذيء. نعم وعلى البذاءة أيضًا، وتتراكم السطوح العامرة على السبع السموات في قوالب من ضحيح مركوبة سروجًا من فضة وعقيق، اركبها إن شئت أو أرخ الزمام؛ فلا بأس أن ترتخي الأزمّة، أن تموت العين تقتل في العين، أصليّ لآلهة الشهوة، تتخدّر حبيبتي بلذاتها، أستنطق في بُعد شهواتي المفقودة، لتتراكم الأشلاء بين الشظايا، على رعوس حاسرة، وسحنات مجذورة، وقبائل مسلولة، وقوافل بلا حنّاء، هل يُعقل هذا يا سلالة البلّهاء والبرق يلعلع في عرق، وأزمّة تستعير الشموع من كنائس خرباء واحات جذباء، من أمخاخٍ محنطة: تميّعت تميّعت؟ قالوا، اتجاهاتٌ جديدة وأن وأن وأن، وسِر الله يهديك، طبّقوا القباب البراقة على الصوامع التي لا تفعل سوى أنها تؤدّن على كمّامات وطواقي الأئمة المساكين أو صوت ينادي يهلل: قديمًا قبيل نزول اللعنة، وإنا إن شاء الله لمتقون، احترق أو خرب الدنيا الصمت الصمت، أنصتوا — رحمكم الله — ولينقلب الآن على الضالّين. طبّقوا الصحاري على براري النخيل، امسحوا بالجريد القيح الذي يرعبكم، لا، هذه مغازلة أو دغدغة أو شيء من هذا القبيل، لا، طبّقوا الصحاري على صحارى غارت تذرّرت بُعيد الحمحات، لمّا كان الغبار وحصاد الزوابع «والقنا يقرع القنا»، و«حنيني لك يكو يكو يكو أضلعي»، و«سلالتي فرقت فرقت من الموت من ظمًا في انتظار شفق» أيها الشفق، أيها الأفق، أيتها الآفاق، بعض الشفقة يا أهل الخير، شفقة يا مخصي الذاكرة، الشفقة سيل إنماءات عقيم، شفقة يا مزبلة الأريج، شفقة أيها الطابور المشدود إلى قنيّة وفخدين، شفقة يا درب مغارتي الرهيب.

احملوا المهازل، اكتسبوا تواتر السلالات، تقهّقر الفيالق، وتكوّن الليل والغيوم والضعف ورحلة الصيف والشتاء. اصنعوا أهرامًا جديدة لعاهاتنا وأوبئتنا، لا أبراج بابل أو أسوار الصين ولا القصور المبتوثة فينا، ولا بهرجة الصور المعلقة على صدورنا شارات

استخدام. احمّلوا المهازل وانثروها في معرض عام، والدعوة مجانية للفقراء واليتامى وأبناء السبيل، دون نسيانٍ للمؤلفة قلوبهم وجيوبهم ... ذوي العمائم الخضراء والصُّفَر والبيض، وكل الذين ساهموا في معركة البناء والتشييد، وعَمَّروا مدائن الأسلاف الميامين، الميامين وسبحان الله وبحمده، الميامين وسبحان الله وبحمده، الميامين ولا حول ولا قوة إلا بنا أيها الناس.

زمن المتاحف، اخرجوا بها إلى الشوارع كما العادة؛ فهي في عربات لتجربة مطاردة المأجورين، اعرضوها في الشوارع عراة؛ فنحن نحن العراء، وعندئذٍ قدّموا المهازل في أطباق شهية قلوب الحمام والعصافير، بح، بحيث يتهافت الناس كل الناس ليتعرّوا في الشوارع والساحات، بدلاً من التعري في حالات السكر أو المكر أو الغرف الملهمة، ليعملوا بمحض اختيارهم، أو محض دفعهم، محض دحرهم وتقهرهم ليسُروا! للخلق من الديناصور إلى أحذب مدينتي الدائم الهذيان. إننا عراة، ها ها بلا خجل عراة، دَقُّوا. هذا تاريخ المهازل بالألوان الطبيعية؛ الحية، والميتة، والمصنوعة، والملفقة لتاريخ الصباغة! بعض التحمُّل إذا كنتُ سمجاً، فأنا أمتح من عواطف كاسدة، بلا ضوء؛ إذ الضوء يقهر العمى، بعض الجهد والاحتمال؛ فنحن شاحبون، باهتون نستجدي ونستمطر البريق ولا بريق، أعطونا بعض الجهد فنحن ميتون يا أولي الأبواب، يا حَمَلَة أوسمة الاستحقاق في المحافظة على نقش القباب، وتناول الصوامع، وأضرحة الأولياء الصالحين.

شاي الله يا رجال البلاد، انفحونا بقليلٍ مما فاض عن خزائنكم من الصبر واليُمْن والبركات؛ فقد فقدنا وفقدنا؛ فقد عييتُ، لم أعد قادراً على ضبط ما يدور في الدماغ، حتى هذياني غمرني، فلم أعد قادراً على حصره، وددتُ لو يمشي في الشوارع خلّيا كما تمشي شوارعكم وأحذيتُكم وألبستُكم كما لا تسير الدنيا، وألف ليلة وقلبي المولّه، هل من الضرورة أن يعترف المرء أمام الجموع والشهود وخزنة الأصوات والهمس؟ هل من اللازم الاعتراف بالأبد وسحق الأبد؟ قد أكون في حديقة ذات أغصان نحاسية وجواهر كريمة ووجوه للقبور ودماء بلا حمرة، تصوّروا؛ فقد هُزَمنا ولم يبقَ إلا الانحراف، قسماً بشرف سُلّاتي المهزومة، فلقد عام الهذيان، أحب أن أسكر، ولم أعد أعرف كيف أحرّك جثتي تجاه الريح المنسية، وجيبي فرغ للتوّ، بينا الذاكرة مواسم ملامح تراهن على التجدد بشكلٍ انتحاري، بينا الذاكرة تُريد أن تُثبت شاهداً حقيقة لما تولد، لما ينقشع عنها الوهم.

ويا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي أو استشهدي بلا احتشام، بلا صوفية أو تنسك، أبينوا عن الشارات الحقيقية، أزيلوا العمائم، السواعد والصدور، لتُخرج نساؤكم أثناءهن

اليابسة، ونخرج بالأطفال المكوري الرؤوس المبعوجي البطون، وبرءوسنا العامرة بالدوخة والأحلام وكوابيس من الرعب وشريط لا نهائي من الميثاق، لا تُخفوا شيئاً، حتى الذين زُجَّ بهم في مخصصة الذاكرة عليهم أن يُقبلوا، ولا تنسوا أن تجمعوا في طريقكم كمية من الخزامى والصنوبر والأرز وعدة أطنان كافية من الحشيش، دروب الحشيش، العين حاملة وعلى جبهتي تصفد الإعصار، ولقد ذُررني الإعصار، ووجودنا مساحات شاسعة لممارسة السقوط والانتظار، السقوط جديد، وكل هزيمة وأنتِ بخير، أيتها السلالة الميمونة الممجّدة. لا تنسوا ظهوركم المشوية وبشراكم الكالحة. أثار السياط ينبغي أن تكون بارزة، والأغلال في مدارها على الأقدام لا تريم ... وحكم الأجداد انحوتها في رءوسكم، كيف نعيش دون حكم الأجداد، كيف ندرج أو ندرج أو نخرج بغير جواهر ألفاظهم وما تفتقت عنه عبقريتهم؟! وأنتم أيها الفرسان الذين خُضْتُم أهلك المعارك وأشدها ضراوة، لتبعث أشباحكم في زمن بلا فرسان سأستحضركم، لَقَنَني جدي المشفوع بذكره أقانيم استحضار الأرواح، وإني للذكر والتلقين لحافظ، أيها الفرسان، هذه الجياد وتلك السروج وتبقى الأشباح، وسنُمسك بالأزمة إلى مدخل الحلبات، وأنتم الشجعان، وعدد وهند وزنوبيا وولادة بنت المستكفي حاضرات جاثيات ومستلقيات مضطجعات على سُرر اللذة، من يفوز؟ عليهن أن يضمخن الطريق، يصقلن السيف والغمدة؛ فهذا الصدا وهذا الصدا وهذه اليبوسة وتلك الحشرات تتسلل من النوافذ إلى القلوب وتمطط الانتظار، الاختصار والتقلص، بلا سخرية أو تهجين، مع إلغاء أوصاف الغباء وحيل التزوير للأيام والفصول. لقد أضحى ذلك حديث خُرافة في الأذان تعيرك السمع، هناك الشخير فقط — إرم ذات العماد وحدائق بابل شخير، مناجاة الجبال والسموات، وما تلاه الرواة والمشعوذون، وما اهتزت له البلاطات وأشواق وحضرات الدراويش من شخير الأتداء المقتلعة الندوب الغائرة، والأيادي المعقوفة، والسنابل الضامرة، والأرض بما حملت، وتسوية الأجسام والعيون وما ذرقت، وأعلام نكست أخرى تمزقت، بساتين وصحارى ذررت الريح رمالها على ذاكرة المجموع، شخير، شخير. أقمار سرقتنا، أقمار ذوبتنا حباً، أقمار ولّهتْنا، عمقت فينا الشوق والسلوان — يا بلد الأقمار وفي كل ليلة قمر.

أيها الناس، اسمعوا عُوا ولا تَعُوا. هذا سوق ما عرفت مثله الأزمان، فرصة ما فُكُرت فيها الأذهان، حكاية تولّه غير الولهان، وتورّق النسيان، سجع الكهان دان دان، هذا سوق ما عرفت مثله الأزمان، لا عكاظ لا مواسم الحج ولا تجمّعات جامع الفنا، صناعتنا أصلية وجيدة، لا مغشوشة ولا منزّهة عن الشك، بضاعتنا معطرة مصقولة مرتوية من

أنهار الجنة، مختومة بخاتم خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، ليس في بضاعتنا نفحة من الشعوذة أو البهلوانية. لا تدوير للأمخاخ؛ فليست هذه هوايتنا. ما عُدنا نفجر الأدمغة وإنما نطلب النسيان، نطلب المغفرة والغيوبة، وبأرخص الأثمان إن أمكن، بضاعتنا رءوس أفاعٍ أو بيض ودجاج تتوالد بين الأصابع والأكمام؛ فقد رحلت ساحة جامع الفنا، لتصبح شوارعنا ومدننا والأرض ساحات جامع الفنا، نحن ملكنا رءوس الأفاعي وفاتنا سُمها؛ ورقصاتنا على وترٍ وناي، ولو أن النغمة خبزنا وقهرنا فاطلبوا دوارًا على آخر. أريحوا شعوذة الأجداد وطيبوبتهم، فتشوا حقائب من مرٍّ بالجبل المنسي، وبنبات الدفلى والصبّار، فلن تجدوا بضاعتي، استفتوا في أمري الأولين والآخرين، اسألوا هارون الرشيد وهاروت وماروت وأرق جدتي والكواكب التي غازلنا، الأقمار التي سَهَدَتنا، عيون الأمس المنتحرة في عيون اليوم، اسألوا أهل الله والخير والزنادقة والصعاليك والقوادين وأشباه النساء، المقدمة، الساقية، أمجادنا المروية المجرورة على سكك حديد من العنعنات، فلن تجدوا — ولقد أضاعوني وأنا الفتى الأمير، الطري العود المشتعل العيون والجبين، هذه الريح وهذا أنا، كلانا بالآخر معشوق، بيد أنني أمسح العرق والإسفلت والتراب، ألحق الجدران يا أحبة ألحق قلبي الدامي، ألحق الأسرار، فلا أصل وأبقى معلقًا يا حبيبة؛ فأنا القاتل والمقتول، حبيبتي غيمة ما أمطرت، ما تبل ظمئي ذاتي — حَلَلْتُ خيوط الأسطورة، وَقَعْتُ أنشودة للأطفال، سرقتني الحور، وجذبتني طقوس النخيل، وفي رقصات الكتبان كنتُ الفارس المغوار، بعثتُ فارس بني حمدان، بعثتُ زين الشباب، فأين زين الحياة في رقصات الكتبان؟ أعدتُ نسج الأسطورة وأنا الذي أراد قتل الأسطورة؛ فالصحراء فينا ضربت أمداءها، وهنا تعالت الرايات وسارت بأحاديثنا الركبان، ومن رءوس الجبال لَوَحَتْ بالمشاعل، وتذكرتُ دعْدًا وهندًا وبثينة والنعمان، جرّتني تموجات الزغرودة هل أجروا على العوم فيها وهي قد تخلّلت الجوارح، وغلّفت الخلايا المثبّثة الذائعة في جدران الموت — وناداني يومها يا أعز صاحب، ناداني: هذا زمن البكاء، فأجبتُ: إني أفكر في النسيان لأنك أضعتني وأضعت العباد، وقُدْتُ المشاعل ورقّصتُ الكتبان وهذه الصحراء، أيتها الصحراء ...

وبناءً على هذا فنحن نقدّم بضاعتنا في بورصة الأزمان، بلا ماضٍ ولا حاضر، ولا بخور التمويه لآتٍ منهوب. قد يخطر ببالك أن تسألني من أكون، أجيبك باختصار: أنا هو أنت، هو الآخر، مخلوقات من جوعها كتبها سأمها، وكل الضياع الذي ورثناه من فقرنا وعبوديتنا ودوختنا، كل الضياع الذي يقاتلنا، كل الهزائم التي رافقتها والمُلغمة بطريق ما يدعوّه مستقبلنا، لكنهم أضاعوني، وقال الشاعر: وأي فتى أضاعوا؟ وقالت العرّافة:

وأبي عشيرة أضاعوا؟ وقيل: ولبثوا في كهفهم ... ولبثنا في كهفنا والكلب الأعلى جالس بيننا، شخير في آذاننا ونحن شخير ونحن شخير، بعض الصمت — تقدّموا إليه مباشرة، ولا داعي للانعراج والمنحرفات، الطرق مليئة بها، وكذا الأدمغة والكتب الصفراء والخطوط المسطورة على السواري والمقابر. سألتني ثانية، فقلتُ أنا أعيا في صمتي برغم العرق المفصود والدم الممصوص، برغم أعصاب السلالة المنهارة «أنا أبكي في غيبوبتي» برغم قوافل العبيد، وازدحامهم على أبواب البر والإحسان، وبكائهم على الأطلال، وتشنجهم على إيقاع السفح والجبال وهم يرقصون يغنون ينتحبون في الجنازات، ويترنحون في حلقات الأولياء، ويسكرون بالليل والنهار ... وإنني أصلي وأصلي عذاب السعير والحياة تسير، ولا بأس أن تريحوني هُنيهة لدوخة العقول والأسماع: «يا حبيبي طاب الهوى ما علينا ... لو حملنا الأيام في راحتينا ... صدفة أهدت الوجود إلينا ... وأتاحت وأتاحت وأتاحت.»

أنت علمتني أن أتسكع — علمتني تطويق رأسي في الحلقات، أسكع وجهي بين الوجوه المخددة، أمارس شذوذي في الصمت الصاخب، أسلي عن أقدارهم في قدح، أرقص النشوة بين فخذين. أنت علمتني أن أسير في الأسواق أحدق في الجماجم، أمّر جسمي بين العباد وأبحث عن ظل شبح، أستقطر النغم من أصوات معدومة، علمتني كلماتك، علمتني صوتك في رقصة الرعب، دفعتني، قلتَ اندفع إنها فرصتك، أنت المربوط إلى سلالة شاخت قلت: اندفع وتشنّج. اعتصر ما بحنجرتك من بحّات، وما بالقلب من غُصص، وما بالذاكرة من هذيان. علمتني التسكّع، أن أمسح وجهي بوجه البحر، أقضم زعانف الديناصورات؛ فهي نحن ونحن كدنا أن ... علمتني كل هذا العجب العُجاب ... وتلومني بعدها، ولما غرقت قلت إنها بحور المعرفة السبع ... وها أنا ذا بعدك أتهالك على تذرّر الكتبان، أجدع أنفي مع كل الأنوف، و«لأمر ما جدع قصير أنفه»، هذه سوق ما عرفت مثلها الأزمان — انتبهوا، سادة للبيع، سادة بعمائم نبوية، سادة بأعمار مختلفة، غلمان وفتيان وشباب وكهول حتى أرذل العمر — سادة بتيجان زُيّنَت بالياقوت والزبرجد نقدّمهم هديةً لكم، لله ومن أجل الخير، لا نرجو ثواباً وبدون أي امتنان — سادة للبيع — من يشتري؟ أين اخفقى النخاسون، تجار اللحوم البشرية، هذه فرصتكم لمء خزائنكم وبطونكم، تصوّروا، إن بضاعتنا نادرة، لا توجد عند غيرنا، سادة فتیان — أيها السيد النخّاس، أين سفنك وقراصنتك ومريدوك؟ — سادة بالحاشية وكل متاع الدنيا، مقابل إطلاق سراح الريح وعناق الكتبان، مقابل تجمّع الشوارع والمغارات في الساحات، واندفاعها كرة واحدة، سادة للبيع، وأبناؤهم في الرضاع، وآخرون في الحب، ومنهم الذين يرتعون، سادة صغار، وسيدات مليحات دعجوات، أهبك

أجملَ واحدة شريطة أن تشتري مني الفصيلة كلها ... السيدة الصغيرة جميلة و«مجربة»، أو يكفيك أنها تمرست في مواخير العالم وقرأت أسفار الأولين والتابعين ومن إليهم، لا تنطق إلا بالحكمة والأبيات الشوارد، لا تسترخي سوى على فراش، لذيدة، طعمها لم تتذوقه، وأنت الذي طوفت بالأرضين وذقت من الطيبات، لكنني أراهن بالسيدة الصغيرة أنك لم تذُق قبلها مثيلاً، إننا نتملى بالنظر إليها فحسب، سادة للبيع في أرض لم تُعد بها رعية وأتباع، اضمحلّت ويبست الضروع، ورحل الحنين، ربما لغير رجعة، والطواير العرجاء قبلها وفقت عند المراسي، تنتظر سفينة نوح، إنما البحر راكد والموج يبيله الملح وهذا الملح قد انتفخ، إنه مندفع، في اندفاعه يتفتت، يتآكل مع الرمل، إن الرمل يعيا بملح البحر والأسماك تنقرض، أسماك البحار تنقرض، قليلٌ منها يهرب إلى الأنهار، بيد أن هذه الأخيرة كانت قد رسبت في القاع، قاع الكل، اهوا بالفئوس، اهوا بها إلى القاع، يتفجر نبع الحكمة، يطفر الماء، يرشح في الوجوه اليابسة، المجاري تأخذ مسراها، ترقص المياه في جداول الأجسام المحنطة، إن الأجسام محنطة وأنا أحمل جثتي الخشبية حيناً، الصلصالية حيناً آخر، الصخرية في أطول الأزمان، أطوف بها في أراضي الناس، أصدمها بالقمم والصخور، عساها تتحطم إزائي، عساني أتناثر تراباً أو أخشاباً، يقع الثقل فتخف الشوارع، يقل الازدحام اللامُجدي للبحث أو تنفجر الجموع في مدن النحاس والصلصال ... أحمل جثتي أطوفُ بها.

أحمل جثتي أطوف بها بحثاً عنك ... أيها النحاس الذي بعثني ذات سوقٍ بأبخس الأثمان، بعث الطواير العرجاء بأبخس الأثمان، وتركتها تنتظرُ عند الموائى مرور سفينة نوح عليه وعلينا السلام ... أبحث عنك لألّاق فأرد الأمانة، أبيعك سادةً بتيجان وصولجانات، أبيعك سادةً فتياناً غلماناً ملاحاً ... أبيعك سيداتٍ بهياتٍ مليحات، سكر سكرات سكرانات بالنشوة ... تحوّلت كلية إلى منفاخٍ كبير ومنه يصدر الصراخ والهرج وأصوات مختلفة لا تنتهي من الحفر في الآذان، وأنا المنفاخ أصبح: من يشتري بضاعة ما رأت مثلها الأزمان؟ سادة للبيع، الحر شديد، الصهد شديد، سيدات، هاكم إقطاعات بالمجان ... و... وبعد أخذ ورد وقلب وتقليب، ونقط، وفواصل، واستفهامات كبيرة وصغيرة، وعلامات لا تُحصى من التعجب والإنكار والاستنكار، وأشكال متداخلة، وسيل لا حد له من القذف والشتائم، رفض الطلب، وحكم على العباد بمزيد من السادة، بمزيد من السيدات، بمزيد من الفولكلور، وأمر بأن تُقام السواري والقلاع في دواخل الناس، وأن تُلصق الصور على وجوههم وصدورهم، صور بالألوان — وتلف أجسادهم النيون؛ ويؤتى بهم

ليجذبوا توقيعهم على ميثاق الصغار والخذلان، وينكفئوا على بطونهم من جديد، وحيء يومئذ بالفصائل الشمندرية ... وكان الهتاف يشق عنان السماء، وباتت المدن والقرى، والجبال والقفار والشمس والقمر والزهرة والمريخ والصحابة والتابعون، باتوا «ناشطين» ... فرحين بما آتاهم هانئين، ناعسي البال، معلوكين ومدلوكين، والخيال تعلق، والأرض ترفس الأرض والراءوس. وهو مستلق بين زق وفخذين، والعالم نشوان نشوان، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وأنا ما زلت أبحث عن الرجل، فقد ضيعته في منعطف ماء، ولبثت أبحث، أطوف الأرض، وتاهت مني الطريق وبيس المصير. عدت أبحث عن المنعطف، بيد أن المنعطفات كثرت، والمسالك تداخلت، وقطاع الطرق نهبا لبوسي وصفاتي، وذهبت ألق أوصاف الأسماك للبحار الموصولة، أنبش ذاكرة الريح، أنبش حيث حفر الحفّارون، ما تحت تلال النمل ومواسم البكاء والنسيان، أدق جبهة زماننا الصماء، ويعاودني بقية من صرع الدراويش — فتتشجج في العروق ابتهالات منها نسغ الأرض، نسغ الدم، دقات قلب ينبض، أستجمع النبضات ... فهل أستعيد صفاتي، ملح البحر المكثف؟ هل أستعيد الأخاديد التي حضرت على دماغي واليوم غطتها ندف الثلج، ندف التناسي لحظات الغيبوبة الدائمة؟ ... ضيعت صفاتي يوم ضيعت الرجل في المنعطف ... نهبتني قطاع الطرق الوشم وفقدت العلامة، أضعت الوشم والعلامة؛ فكل الرجال الآن بلا علامات، كل الأطفال بلا علامات، لما فقدت العيون وهجها، والوجوه سمرتها، والسواعد تشنّجها — والأيدي التي لم تعد تهصر أعناق القياصرة — إن الأيدي تمارس العادة السرية، ملء السمع والبصر — إن الأيدي تصفق وتلوح لسفينة نوح التي أبطأت في الوصول ... وهكذا.

هكذا فقدت العشرة صفاتها، وفي كسلٍ بليد ولذيد يتساءلون من أنت، من هم جميعاً، ما خطبكم؟ وأين عرائش النخيل عندكم؟ من هو إلهكم؟ الدروب والجسور والمجاري التي عبرتموها إلى جزر النسيان. الصمت ملء كل أذن ومكان. فقد الناس عادة الإجابة، وتفوّهوا، وبخفوت التفت البعض إلى البعض وهمس:

لا تسمع، لا ترى، لا تتكلم، لا نتكلم ولا نسمع، الصوت ضاع الصوت رحل ... صوتي معقوف تحت لساني بعد أن كسدت بضاعتي في المزاد العلني، ورفضها النخاس بأبخس الأثمان ... وتحولت كلية إلى نارٍ مقذوفة في الحلبة تحرق، تحترق بنفسها، وقرع دفوف، قرع صنوج، قرع طبول أفريقية، هزّات الأجسام، هزّات البطون، قرع جباهٍ في أرض يا هاه يا هاه، قرع أفريقي، صليل سيوف أفريقية ...

رأسي يدور أيها الناس ... دقات طبول زنجية ... وأنين السواقي بعد خوار الأبقار ...
وحبيبتني تخمش خديها ... إنهن يخمشن الخدود يولولن — حبيبتني أريدك صافية الوجه
بلا خدوش، بلا جروح، وإن كنتُ أحب الدم، أحب الدم فيك ... دقات صنوج، وخصور
تلتوي بين الرءوس دائخة، وقوافل العبيد من آدم، قبله بقليل، والعلم للعارفين، تسير
محنية الظهور وقد سلكت أزماناً من الأعاصير والظلام، تسير بالجسد ... أضعت الصوت،
احمرّ السوط على الجلد، هذا الجلد تهراً فالمسوه ... لا مكان لسياط، لا سياط، لا جلد
لسياط أخرى، ولا قلوب لنبيض آخر، لقد أفلست القلوب بدون جدوى، علقت الفوانيس على
مداخل طرق القراصنة ... وإنها تقطر ...

لقد أضاعوني قبل أن أفوتك أو أضيّعك، هل يسهل على الواحد أن يُزج به في جحيم
ضياح سها عنه، في مفرقات تتفجر فيه، بداخلها أنت؟ أنت في كل مكان — هل تعلم
أنك علمتني قتل سبب الريح، احتضان مخايل السراب؟ ويقتلني ليل المغارة، علمتني
الابتلال بالعرق السائل من جباه قوافل العبيد، الاستحمام في الذي أسموه مستنقعا ...
يُخرج قذاراته من أنفي، من أنفي تبدأ المستنقعات، إنني مخلوق ملوث، القافلة من سلالة
ملوثة، لا تقربوها، العدوى، لا ينفع اللقاح، إنني أهذي بالتلوث، ابتعدوا عن الهواء الذي
يلفني — إنهم سيئوا التغذية أيضاً، عظامهم ينخرها السوس، يفرزون القمل والهاموش؛
لأنهم عبيد، ولأننا عبيد بتقريرية سافرة — ابتعدوا، وبلا هرج، قد أمسى الطابور ينهش
لحمه وبتتابع، حكمت عليكم أقداركم أن تتناهشوا بعد أن كسدت بضاعتي، بعد أن تشتتت
أسواق النخاسة ... أيها السادة لمن أبيعكم؟ أيتها السيدة المليحة القد، قد عي إصعادي
ومنحدري بين مواخير العالم، لا من يبتاع ولا من يسمسر ... لعل الناس آثروا استنطاق
أعضائهم في هدوء، في استرخاء ... راحوا مع ديدبان صمتهم ... يا أيتها الحاضرة المحبوبة،
جئت إليك درويشاً نقي النفس، وهذا صهيل خيولي، وتلك الثعابين ترقص لمقدمي، وأم عمر
تهب لاستقبالي بزق وسبحة، وأنا المحب الهيمان بأعراش النخيل، وفي سمرتها ألمح جبهتي
عارية في بريق السحر، ارقصي أيتها الثعابين، يا قوافل العبيد — سحقاً، لقد سرقوا الجياد
لكن الجموع لحد الذاكرة هائجة، والصرع نحن أهله. أيتها الحاضرة المعذبة والمحبوبة.

وفي كل ليلة قمر، كل قمر بليلة، وأعرف أنني بلا أهداب، أعرف أن حبيبتني تخمش
خديها، ورغم ذلك فقد جئت أمارس بعض شذوذي، أستعيد أمجاداً مما عندك، أشتعل،
أنا الذي تصبرت أعضائي، ما شئت لا ما شاءت الأقدار، كذلك ورد في الأوراق نحت في
الصخور، ما حملته الأسفار أن أرحل إلى الحاضرة كل عام من إيقاع النبض، أسألها عن
الرحيل ومن حمل. أضعتك في المنعطف، كم من منعطف، كم من قرصان.

تسأل لم أتيت، والقبيلة احترقت، والزمّام مضغته ناقة جرباء، وأنت لا تصنع شيئاً سوى أنك طريح مرضٍ مزمن احتار فيه الأطباء والسحرة، وغسلوا الكلى والقلوب. تسأل لم غامرت في التجوال والدرب وعزّ دامس. وكل الذين مرّوا به أدمت أجسادهم الحجارة، ومن جلودهم صنعنا بُسطاً، نسجنا أغطية، أقمنا العمران ... ونقطاً أخرى ... لكن ذلك الرجل أَرْضَعَنِي لبن الأَلْغَام، لا أمتص الأصابع التهاء أو حسرة، ولكني أذوق دمار العمران الذي تردّى فيه جسدي، إنه جسدي، أجسادنا والروح، وقتيل القنديل، وسخف حضارة ما. ذلك الرجل ألصق بي جلداً يابساً وأنا طري العود، لم أعتد الأثقال. كانت مفاهيمهم وألهيهم غرفة النسيان، أشد أهداً، وأمتص حركة عصروها لي سلفاً، وأضاجع آخر قذارة صبار لزج لأخمد التوهج ... ونحن نعاني الكبت؛ ذلك أن الرجل الذي علّمني التسكع لقّني الاختناق، وأن القوم ينبغي أن يختنقوا، وأن الطفل وإن أنجب فإنه مختنق، وأن الذي أنجبته أمه وإن عاش فهو حيّ ميت ... واتكأ الرجل على العكاز ... العشيّة على عكاز ... صدرت الأوامر أن كُفّوا ... ضغط على الزر ... أنا لهفان، ظمآن، امرأة أسقطت جنينها وأنا ظمآن ... وأناس فرّوا، أصابهم الرعب ... تعلقوا بالأغصان والنجوم وأنا ظمآن. وقيل طُف هُنيهة، وقبل أن تغلق الأقواس أو تفتح ركز جيداً، اضبط الحالة، عانها ... أوّلُه ... الدوخة في الوتر، وهذه الطقطقات جاوزت جبين الصبح، قدماي، أرضي، مخلخة، وليثرثروا، التركيز، الدقة، المفاهيم السويسرية، طُف هُنيهة؛ فالفرش آخر المطاف (أجمع الوحدة من التنوع وحتى من الخلط إن أمكن) من يفهم أنه يخلط؟ وآتي أجري في الخلاء وتحت إبّطي نصف كسرة يابسة، وطلّل على طلل، ونور هارب عن شمعة، وحياة يخال أنها تتجدد في أبدان الآخرين والله يستر، الناس والطقطقات، والرعدة الرعشة، خلية الجبناء، ونحن بين الظل في الهجير، أولئك يريدون القيء وترتق كأساً واحدة، فقالوا نَعْمها مطّطها، إنها منا وبعض من السهاد، فانتحب الطفل الرجل وراء الرزق، إنه يخدم رزقه، من يملأ الأفواه؟ من يعطي معنا لحانات العالم غيوماً؟ ويا زمان البؤس بالأندلس، لكنه الرجل ذاته الذي أضاعني عند أنف المغارة ... وما الأنف؟ ... سألت ما تكون بغية الأعضاء إن لم أجابه ضحالة الأشياء ... إن لم أجابه عقوق العبيد!

إنني في الطريق إليك أيها الرجل، قبل أن تتحرك ركباني إليك، قابلني الرجل الذي يحرق لسانه ولا يحترق، قابلني الرجل الذي يحلم بالسيد والسيدة وبالبلاد قاصيها ودانيها، قابلتني العانس العاهرة التي تحلم بالأمير والقصور، والمرجان، قابلني طائر مغترب، وتقابلت الوجوه، وجهي ووجه المرأة الحامل كانت في الطريق تسير صارخة:

إنني حُبلى بالأفاعي والعقارب بالجراثيم والحشرات التي تُفسد الحرث والنسل، بالدوي ولا دوي، بصليل سيوف الفرسان المهزومين، بدم الأقدام المغلولة، حُبلى بالزوبعة وحنين ملفوف في الرمل ... فقهوة بالحليب أيها السيد الكريم. قابلني الإقطاعي المبتور القدم يدب على عكازه، ويناجي إقطاعاته المفقودة، يأمر وينهى، ويسافر في زفرات النجوى، وترحل الكونتيسة في منظارها، تعطي الأوامر للوصيفات، نساء الدنيا وصيفات لك يا سيدتي الكونتيسة، وأنا أرفض أن أكون عاشقاً لامرأة زأدها نبل عتيق، إنني الفارس والشمس صقال السيف، والقبيلة قبلة الرجل يهذي بالسيد والسيدة، لم تأت أيام الرخاء والرخص وأنا أفرك الزحام؛ فأنا عرضتُ بضاعتي بأبخس الأثمان — قابلني الرجل الذي يصارع النوافذ، تُفتح تغلق فلا يعرف كيف يوجّه التيار، النوافذ تُفتح، واليد مبتورة، وربك الغالب، وهذا اليوم المشرق، ورايتي الشعثاء رايتي. احتار الرجل في الأمر، وفي أمره، وصلى صلاة الاستخارة فما نفعت، وناجى عشيقته فما أفادت النجوى، وقال يا سماء أقلعي، لكن العاصفة دامت. ولم يقر له قرار، جفا النوم عينيه وحاصره الأرق، فلم تنفع العقاقير أو المخدرات — لماذا تُصر النوافذ على أن تبقى مفتوحة، هداه فكره الثاقب إلى سد البناء، لكن النوافذ لسوء حظه عادت حيث كانت — ماذا أصاب مولانا؟ ارجع إلى نفسك ودعك من العناد ... فلماً أغلق عليه الأمر من جديد استدعى كبار القوم ومفتي الديار، قال: ماذا ترى يا أعلم القوم؟ هذا دورك، ولكل أمر أوانه، احترنا في النوافذ وارتجاجها، أقمنا الطوب فانفتح الثقب، ما فتواك ونحن على أهبة الانتظار؟ ... وحك المفتي لحيته، ومَرَّر أصابعه على عانته، وغازل قمل الحكمة عساه يهديه ... وما لبث الإلهام أن مشى إليه فنطق بوقاحة معهودة: وقيل اصدع بما تُؤمر يا سيد الرجال — قام المفتي وقعد، لف والتف، وأدار البرنس والجلباب، والعطر يفوح، وماء الورد يفوح. إن السقيا تنزل بعد صلاة الاستسقاء ... ووقف الرجل وأوقف، وبكى وأبكى، وكان موقفاً جليلاً مهيباً؛ سيرفع الكُرب، يُرخى اللجام، ترفع عقيرة مولانا الإمام ... وبخ بخ: بلغني فيما بلغني، وبلغت فيما بلغت، ولقد أبلغت وبلغ لي، وعن السلف الصالح، وغار الحراء، وبحار المعرفة السبع وصلنا، أنه يا سيد الرجال، لا بد من (ويُغضى من مهابته ...) لا بد من بناء سورٍ من حديد على الجدران، فتنفس القوم الصُعداء ... عداء ... داء ... وقام بعدها سيد الناس ليفاجئ الناس: لنشرب الليلة نخب معرفة حكمة الإمام، مام ... مام.

في الطريق إليك هل يملك المخلوق الضئيل العينين وهو في الرحم أن يصل؟ هل يملك الواحد المخنوق بقفاز أن يتلمس منابت الضوء إلى رحابك؟ هل يطمع أبناء السبيل التائهون

في كل مهمه، الناعسون ولا رقاد؟ هل يطمع أبناء السبيل أن يهل ضوءك فوق رءوسهم، حكايتنا ورضا أولياء الله ودعوات عرّافتنا المقدّسة وقذى العيون المسمولة ترتفع إليك، تسأل قبل الوصول، يا لسعال النجوم! فلا تستجيب، لا لأنك غير سامع لأنهم يشربون الصوت، يمتصون الضوء — لا أغني، لستُ بهلواناً، لا متعباً ولا بالمقرّف. إنه الزمن أيها الأحباب، يا أهل الخير يفصد العرق، يمتص بلا عرق — لا عرق ولا عروق ولا وله الحضرة، طرحنا الحلة والأوشام. أذبنا النغمة عصرناها في الطريق إليك. لم ينفعنا هذا كله، ولا نفعتنا عظام أو حدوس عرّافتنا. لن يصدق أحد أنها تكذب، وأن الإنسان أصدق من وجد. طرحنا الحلة والأوشام، فبقي عراء الخارج، بعض العيون، بقيت قشرات الأدمغة ... يجدل النعاس في عيون، يسرق الأحلام من أخرى. إزاء عرائنا كانوا يلهثون، صهدنا يلفحهم، مزيداً من المشروبات والمنعشات المطربات والمرطبات والهجرات إلى بلد الصقيع. كان الناس «يكونون» دوائر تضيق وتتسع، ويبدأ الدوران؛ ففي كل مكان يدور الناس، في بعضهم أنفسهم على بعضهم أنفسهم، وتدور معهم أشياءهم خصورهم مؤخراتهم، ويصفقون يعنون أه ينتحبون ومثلنا يتعرّون، مرحى بطقوس العراء، لقد زرعنا سلالة العراء ... أطفال ورجال في العراء، حواجب مصبوغة وسيقان عارية في الهواء الطلق، دم يسيل على الأرصفة والجدران، وأحياناً في أسواق الورود ...

قلب مفطوم بالحزن ... كُتل الناس المخروقة بالوتر وبالنغمة — لقد زرعنا العراء، بلا طواقي أو أستار الكعبة، أو حتى الخسوف؛ فالشمس رائعة ومغضّنة الجبين ... وفي عيون البعض حيرى ترتقب السير، لكن الفوق عار ... وعلى الناس في سائر القرى والأرياف أن يزعموا أنهم بعيدون عن الجذام أو ديدان التفسّخ؛ فالأمر سواء. هاكم هذا المشهد:

هذه حبيبتى تتلامح ... تدنو ... توجد ... ترسو بها سفن الوله ... والعالم زجاج والصرح زجاج ... حبيبتى أتت لتؤلّهمكم، أتت، وتستخرج قذارة وبلادة أمخاخكم ... تمسح العرق ... تمرّ الأنامل في سائر الأعضاء، وتنزع ما عليها قطعة، أه! فقطعة يا ويلى قطعة ... يا نارى وقطعة أخرى، وترقص أناملها في امتداد إلى تراكم الأجساد أمامها وحولها وبينها وعندها، قدام وخلف ... فتدغدغ وتلامس مزيداً من اللمس، سفن الغبار حلّت هنا قابعة من جزر الضحك يا فاوست الجحيم مشهد الضحك الكبير في الوسيح والطرفان بداية ثانية ... وهي تلامس وتنزع القطع ... الآن تسلخ جلدها، تسلخ الجلد عن الجلد وعليها مسوح أخرى — كم يطول الطريق إليك وإلى العظم! ... كي تتسل اللحم من

العظم، هذا العراء في الخارج وحببتي ما تنفك تتعري، أيها الرجال الغارقون في الصمت، إنني إنسان يهبط إلى الداخل مع كل نبض، وبينني وبين الموت مدى من حياة، مدى من ولادات متتابعات، وبينني وبين الموت مدى من الأوثان والسموات والطوابير الصامتة، الآخرون في سفر الضحك، ثم صرخت حببتي: لقد تركت توازني وجئت أرجم الصمت، الآخرون يدورون، تركت دعاة الصمت وجئت أريكم زمن العراء. الآخرون يتراشقون بالجمال المكورة ... تركت حببتي وهذه أعضائي، اقترّبوا، أي شهوة أي لذة، امتصوا، امتص، أح إنها الرغبة الرعناء، امتصوا النعومة ... سلخت الجلد وهذه العظام على طاولة التشريح، هاتوا مباحثكم، اختبروا صلابة العظام، مدن كثيرة من العظام، كل محتوياتها عظام. وهكذا كان أن خرج الرجل، ظن أنه الصبح، رأى عظماً صغيراً ارتجت ركبته، وخيل إليه أنه ترقوة المارد الجديد، فلما سقط حمل من جديد إلى مرقده. خرج في المساء، اصطدم بعظم ثانٍ فانحرف ثانية. وهكذا فالناس لا يتعظون. لقد تراصت التوابيت في شوارع بطولها، تصوّر، وبشموخها، واصططت العظام وعلينا أن نتسابق للدخول، كل شيء بالمجان، التحذير هو الذي ارتفعت ضرائبه في بورصة الأموات، تقدّموا إن كنتم لم تؤدّوا الخراج لأمر المؤمنين، قبل دخولكم التوابيت، حببتي تحترق في عظامها، لكن الناس غافلون عن الاحتراق، ما زالوا يضحكون يلتذّنون بالملامسة، يلتذّنون باللزوجة، الصباح لزج، وأعضاؤها لزجة ...

إننا زرّعنا سلالة العراء وراياتنا مرفوعة وحيادنا موصولة بحياد ... إننا زرّعنا حنكة مسك اللجام، والريح سهوة، والفرس دنان، والبطاح أراضيها فيها جراح تفور من دم، رسخت على وجهي، عرّتني في أماسي العريضة، عرّتني القبيلة في أماسي النجاوى والأمداح ونغم التكرار. وعرّتني القبيلة لما دخلت زمن الجوع واحتبست وحبست لذت بالفرار وأنا في قلب جبهة الزحف، وكأن شيئاً لم يكن، وكأن حببتي لم تحرق عظامها، وكأنني ما علمت السر، لم أسره آذان العباد. ولقد رحلت أسرار إنسانكم، لم ينهك الدوران الناس بعد، لم ينهكهم ثقل الجثة الجديدة، إنما أنا أعياني الطريق، والوصل يدهمني، وها قد شطّ المزار — كيف أقابلك أيها الرجل كيف تعرف شاراك، وأين القنديل؟ لم أبلغ السر ولا الوشم، لكنها المنعطفات أضاعتني وأضاعنتي، ولا أزال في الطريق إليك ...

في الطريق إليك كانت الألغام مزروعة، فأبيت انتشالي من وهدة الأصفار، وتلك الشمس شمسي، تلمحها ولا تُدنيني منها، يا زمنًا زنديقًا كيف؟ أنا والأرجوحة وظل امرأة عجفاء وقافلة تأبى المسير، وكأس في اليد ترتعش، آبي النسيان لا تطلب أن يملك أحد أو يحدّثك للتناسي عن خرافات الأولين؛ فقد أداروا اصطياد ذاكرتي لشرك الاضمحلال. وحدّثني العزيز مصطفى قال: الإنسان حيوانٌ عربي، فقلت: فكيف تضمحل ذاكرته، قلتُ كيف الطريق إليك بلا سابق إنذار أو تعبئة بالعسف أو السقوط؟ كان النغم يسحق العصب، والكأس تدور، وما زال العُراة حلقة العراء يدورون، وأمها ثديها عارٍ لكل عابر، وأنا في الدوحة في الدورة، تلك النغمة لا تفتأ تتردّد، لا أملك شيئًا كي أمسك أجر جبل التجافي أو الوصل أو التوصل، معذرة؛ فالدوحة أكبر من حبلي أو زمني، أو ما في مقدرتي من الإمساك عن الصيام.

الإسفلت في طريقك مجروح، والجرح منفي بداخلي، حرّروا جراحكم، كيف يشتعل الواحد في أزقة بلا منعطفات، كيف يرحل البرد إلى بلاد البرد والصحراء بلا تيار؟ — لا تتوغل في نشوتك، وتظل سادرًا في غيك؛ فهؤلاء الناس يريدون الأشياء بالتدقيق، يريدون وسائل الإيضاح، المسألة أكبر من الذكاء، وحتى إشارات المرور، أكبر من هذيان صديق أحببته، وسرحات حبيبته الهاربة أرق من سلام القوقعة، أبحث في الثنايا عن أشياء مخزونة قد تكون، لا تُبقي إلا كراتٍ غابت عن أصحابها سُمّرت هناك يشرحها الباقي، وأصابع الظافرين والظافرات، لا يلزم التهويم أو التهريب، لقد انكشفت لعب الأصوات الخافتة في مهرجانات الشهب الاصطناعية، خاصة عندما يتعلق الأمر بـ... وبـ... وتأمّلوا، وارقبوا.

أنصحكم بالمعاناة أيها المغتربون، والحصاد مصيدة ولو أن السجعة مقلوبة؛ فالمؤمن لا يؤمن حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه؛ فالدهر مقلوب، وكذا الرءوس في سطح الركن الصدى، والبقية هذيان مصطفى النيسابوري، هذا الشاعر، النبي، المجنون، المجنّن. احسبوا ما مضى من خُزعبلات، لكنه هذيانه، أعشق فيه الارتماء على رعدة زرقاء يفرح بها الوهج، وأنت يا عمر، يا مدينة بلا أهداب؛ فقد احترقت كل الأهداب. وهذه الشهب مأتى بلا حزن يُقام عليك، أو إن مصيرك أن تتوله في زمن العقوق، وإنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وهكذا تجيء نهاية الأشياء، ولكل نهاية شيء، وقد تأتي عند نفاد الحطب واحترق العصب.

على أي حال الربح لكم، أعطي الآخرين حظي، اقتلوا واشربوا دم الأجداد؛ فلا عيون عيون أحبها، وصومعة في طريق الانتصار، وفخذان سمرّاوان ذاك البابان، مدخلي إلى

مدينة الصرع وإليك ... قابلتني المرأة، والصوم بلا نُسك في أمعائي يُعجزنا عن السير، قالت: هل تدور؟ قلت: أنيري طريقي إذن، فأدركنا الشارع، وتوهت السفينة، وأنا الربان والبحر والميناء، هاتِ الموج، وتلاطموا بعد ذلك، هل تدوخي امرأة، تُبطنني نشوة عابرة؟ بيد أنها أصرت على السير، وأنا وأمعائي عاجزان عن المسير من زمن — واليبوسة أنبتت الرغب وهذا الظمأ ولا ارتواء، قالت سأروي ظمأك، أعطيك شحنات لعبور صحارى القفر واليبوسة. قلت: فهل تقدرين على تجريب الظمأ، كيف يصل إلى الارتواء مَنْ لم يحترق من ظمأ، مَنْ لم يحلم بالنغمة والعشب وقطرة مطر، كيف يسكنني الصرع وأنا في حلبة الجنون؟ ولقد صرعوني ظلوا يصرعون، بلا رُقَى أو تعاويز، قبلك صنعت منها حصوناً وهمية لذكريات قبيلتي النهار، وتحطمت، بعثُ مع حطامي أسلحتي القديمة، بعثُ الرعاع، ورميتُ المنجنيق، وهذا لساني شاهد، هذه الأعضاء مبتورة ... إن الأعضاء بُترت في حلبة صُرعَتْ فيها وأنتم تشهدون تصفّقون، وكن يزغردن والأصداء تذهب إلى بعيد، محمولة يُطاف بها في أكواب، واشربوا نخب النصر والهزيمة، وهذا زمن الفرسان المولاهين، والنصر آتٍ بإذن إله، فهل نادى بذلك مفتي الديار؟

مخفياً في جزر النسيان، مقموماً في مدن الرغبة، مزحوماً في المد مُفسّخاً في جزر الانهيار. وهذه المدن الفظيعة يسير فيها الخلق على غير هدَى فلا ترشدهم نقاط الضوء المبتوثة ولا أعين الرقباء. يمشون ويضطربون فما لون المسير؟ السؤال الكبير معلق على الأحذية والشعيرات البيضاء تدبُّ في سواد الغابة الكثيفة، هذه غابة بلا حدود. بعض الخلق أحجم عن الجواب ولاذ بالصمت بجذوع الأشجار — ويُغربلون التربة يفتلون ويحيكون، ولكنه قبض الريح. جذع الشجرة يابس تناسلت فيه الديدان، أراد الخلق أن ينصرفوا فما استطاعوا، علقت بهم الجثث، وأخذت تبني لها أعشاشاً، وظلوا حذاء جذع الشجرة يُغربلون يتهايمسون يتناجون يفتلون ويُحصون، والحصاد ازدحام تناسل الديدان.

هذه المدن عقيمٌ إلا من القرف. إنه عيار الاستفزاز بمنتهى الصلاحية، وأنت مطارِد على الدوام، والوجوه تطردك، وأغرب ما في الأمر أنك لست مخلوقاً بشعاً أو قذراً؛ فعندك بعض مسوَّغات القبول؛ قامة فارعة، ووجه يبتسم لك، واللباس أنيق نوعاً ما، والحديث لا يخلو من مرح وخفة روح، وشيء آخر؛ فكم من فتاة تبتسم لك في الطريق بمعنى أنها! بمعنى أنك إنسان اجتماعي قادر على التكيف مع الطقس وحشر الرأس بين الرءوس، لكن صيحات التحذير والوعيد تصكُّ سمعك، ابتعدوا، ابتعدوا، هذا المخلوق إنه يفسد عثرتنا ويمتص رُواء حياتنا، شيءٌ مقرفٌ حقاً، ولا ينفك الثواب أو الاعترافات، حقاً إنني أذنبت

في حقكم زمناً، ولكن ها أنا ذا أعود. رجلٌ ضلَّ والإنسان يُخطئ دائماً. وأنا واحدٌ منكم فضموني إليكم. أُجيد العزف والرقص والغربة، ويُعجبني خيال الظل ولعبة الكركوز كل جمعة، فما العيب إذن — شيءٌ مقرف هذه المدن وهؤلاء الخلق، وأنا أسعى من أجل صلاح الرعية ورفاهها، وأوزع الأرض والدنانير بالقسطاس، يقصد بابي الناس من كل فجٍّ عميق، غافلين دائخين تاركين الحبل على الغارب ...

مقرفٌ كل هذا — هذه الوجوه الصلصالية البلهاء الثابتة المكورة المعدومة تتكون وتتدحرج في الشوارع، تستمني على الواجهاً بذقونٍ مخلوقة والعطر يفوح ... إن العطر يفوح، يشربون القهوة والشاي والجعة والخمرة، ويأكلون الخبز والحشيش والبرتقال، وينامون في الليل وأحياناً بعد الظهر ... شيءٌ مقرف كل هذا، ولكنهم دائماً يتدحرجون كرات صغيرة ومتوسطة، وقليلٌ منها ما كان مدبباً يخدّد الإسفلت، شيءٌ مقرف كل هذا. مقتولاً في مدن الرغبة، محصوراً في التكدس، الأشياء والمخلوقات تتكدس فاقدةً للمعنى، شيءٌ يبعث على الاشمئزاز ... وأنت تحب أن تجول بينهم ولا تحب، المصيبة أنك كوجيتو حافي القدمين، ويبدو من الصعب الإجابة على بعض الأسئلة عندما تكون مزحوماً بالاكْتاف، فتفضّل كبقية الخلق — أن تشرب صمتك وعيشك وعيشة الجواب والسؤال في فنجان قهوة، تُدغغ أعضاءك لتستعيد المرح ... إنك تبدو مرحاً هذا الصباح، لعلّك قضيت ليلة ممتعة، إن عينيك حلمتاً وتحلمان، قُص عليّ كيف كانت بالتفصيل، أه منك أيها العفريت! إنك بادي السرور، بل أنت مسرورٌ جداً وتلوذ بفنجان قهوة، اقترب مني، ما هذه الخدوش في وجهك؟ لا بد أنها كانت معركة «حامية الوطيس»، وفنجان القهوة ما ذنبه؟ أه هاتِ التفاصيل، شيءٌ مقرف كل هذا!

إنني رجلٌ يحب العنف والهذيان والخمر والنساء، بُكرةً وعشية، وكذلك تُعجبني ألد الصحون والبقية من الطيبات، أحب الرحلات، كما أن جارتي تعيد على مسمعي أنها تحلم بسريرٍ من الجلد الناعم، وأن فراشها الحالي يُوجع ظهرها، والأطفال يرغبون في كراتٍ كبيرة في حجم الشمس! والسيد فلان يستجوبني يريد معرفة السر الخطير! يُغريني بالالتفات إليه، اكتشف اللثام عن الأسرار العظام! لذا، وإذا تفضّلتم، دعوني جانباً، أبعادوا عني نظراتكم، اغرسوها في الجدران، ها، أنتم تحبون الجدار. أنا لا أحتمل وجوهكم مع أنني طيب وهادئ، وأحب الخمر والنساء، وأحياناً التسكع في آخر الليل أو أوله، لستُ بالتقي ولا الورع، لكن ماذا يضيركم لو أبعدتم الأشباح قليلاً؟ خذوا يدي وقدمي وكل أعضاءي، لا بأس أن تنصرفوا إلى أحاديثكم. وبالفعل فإن فلاناً يُقال إنه مُزعزع وليس على ما يُرام. هل

ترى كيف يمشي ويجلس؟ ما بال هذا المخلوق؟! والعجيب في الأمر أنه استطاع أن يفلت من حبالها، وأنا من رأيي أن المسألة ينبغي أن يُعاد فيها النظر حتى تأخذ الأمور مجراها الطبيعي، وتعود المياه إلى مجاريها؛ فلقد طفح الكيل، وثقل الميزان، إن الذي يُزعجني أن هؤلاء الناس لا يريدون الاعتراف بعظمتي وحنكتي وعبقريتي ومهارتي وجلال قُدري وعراقة حسبي ونسبي وأمجاد أمتي وتنظيمي الدقيق وسهري على كل شيء في عين المكان! فلا تفوتني شاذة ولا فاذة، ولا أهتم إلا بعلمي، أما بعض الأشياء الأخرى فعندي ما يصرفني عنها، خذ السياسة مثلاً، إنها مضيعة ومفسدة للمرء! أنا أحب رهان الخيل وكرة القدم، ولي بنت عم تهوى جمع المحارات هوايةً رفيعة، «الصعاليك» هم وحدهم من يتبعون السياسة، ثم إنها تُوقع صاحبها فيما لا يُحمد عقباه، ونحن نطلب الستر والسلام والسلام والسلام ... شيءٌ مزعج كل هذا ...

إنني رجلٌ يحب العنف والخمر والنساء، وفي إحدى الليالي خرجت ممسكاً بذراعه، كان الجو بهيمًا وكل الأضواء قد انطفأت على غير العادة، وانزلتُ يدي فتلامستُ أصابعي فإذا هي لزجة، مسحْتُها بالتراب فاسودَّت، تلفتُ أبحتُ عن الذراع فما وجدْتُني ممسكاً بشيء ... صرختُ من الفزع، استنفرتُ صيحاتي وحنجرتي، وطفقتُ أصرخ وأرفع صرختي، توقعتُ أن يهَبَّ الناس مذعورين، لكن العالم كان رقادًا، وأضعتُ الذراع، وأخذتُ أحبو أمشي أعدو بعدها في الشوارع والمنعطفات، أسائل «الصعاليك والسكراري» ألم تروه؟ أما لاح لكم؟ يحملقون في وجهي، صمتًا، إنني أضعتُ الذراع ويدي اسودَّت وهذا الليل بهيم ... واصطدمتُ بالقرف والإزعاج، والجرب ما تزال معلّقة بكفّي والليل بهيم، وأنت هارب أو مهرب لا تتحرك، لا تهديني تُخرجني من هذه المهمة وأنا المقموع في مدن الرغبة المعتوهة بين قاماتٍ لا معنى لها. في الطريق إليك قابلتني امرأة وطفل والرجل الذي يحمل مواخير العالم في دماغه.

ما رأيكم في رجلٍ يحمل في دماغه مواخير العالم يهَبُّ مع العاصفة، ينتشر على النجود والأغصان عندما تسعى الزوبعة في طريقٍ مفتوحة. هذا الرجل أحبه مثلما لم أحب أحداً، شرب الماء والعظام والنهاية ذاكرة مهاجرة. لكن الرجل وإن زحف القوم وإن انتشروا فهو غطاء بديل للأسماء وإن ردّد، فإن تملأ الأفواه تجاوبف الزمجرة فلن تكفي سفالات الخلق لإشباع مواخيرنا، أو تستجيب للعهر للدوخة، اقلب الجثة، مرّغها كما تشاء، لقد تُقبت وثقوبها مفاتيح للطرق المسدودة. افتحوا لهم الأبواب في رحلة عيون رمداء، وأنا شربتُ الماء والعظم، وبين الرتاج والعشب وصحو الخرائب مشيتُ انكفأتُ مُدًا من الأزمان، لم

أصْحُ للطبول أو للنواقيس ورقصة الأولياء، تشنُّج الآلهة! انكفأت وقلتُ هذا زماني بلا ضجة وبالعربة، أه! زوبعة السكر مجاري الدماء ونحن في غنى عن القعقة! تبدو الأمور بهيئةً جليلة غبية سخيفة. لكن الأشياء في عُرف الأشياء تافهة تافهة إلى آخر القلنصوة! والنهاية ذاكرة مهاجرة. لقد نزحت، لكنه القدر، الساعة أو الأقحوانة نتوءات جسدي بعض تضخمي نزوحى إليك، هجرتي في مدى حزنك أيها الكتاب. ها أنا ذا أتلعث، أقرأ الأبجدية بقلبي، صدى التاريخ وتلك الوجوه، أين وجه حبيبتي؟ صدى في صمتها، والآن لا أملك لأسواق النخاسة سمسةً مربحة. يبتسم وجه الطفل، يغلي وجهها، أيتها المعبودة! تمتد اليد راجفة ... صدقة؛ فالأشياء توحدت، ولم يعد الرجل يملك سوى ذاكرة مهاجرة وبعض الأقراص من الغثيان، لا لأنني لا أتبين الملامح والأوشام / ولا أبصر الدعارة والندوب، لا يعبأ الواحد سواء توحدت الأشياء أو تفككت. في زمن الخلط أبصر الكرسي والفنجان والمحاق المكسور وزقاق الطحالب وأجداناً مشبوحة في الانتظار، أجداناً هاوية وأشياء أخرى. لكني عييتُ ولمّا عييتُ تدرّعتُ بالصمت وبباقي الدروع الصدئة، وخرجتُ من الرحلة بذاكرة مخددة مهاجرة أنت وبجياذ وطقطوقة ... صحيح أن المرأة فخذاها انفرجتاً، وتكوّرت العضلات، وبعثتُ دمائي، وخرجتُ أمصمص بين شفتي نفس الاشمنزاز ومصلحة واحدة لفرضيات مختلفة، ولك أن تقلب الأمر فتصل إلى نفس التحصيل، أو تذهب تواءً للانتحار! تسامحتُ الآن معك ولو أنك شربتُ دمي، وهذه الشوارع وتلك السهول امتداداتٌ للصمت والنسيان مفاخر للأجداد، حلبات للرقص وذكريات الهزيمة. وعلى العموم فنحن لم نخش شيئاً؛ فقد نؤلهك نصعد بك إلى أعلى عليين، ولكنك تظل أنت تسير عارياً في الشوارع وطريق النجم منهج قدميك.

أضعت الرجل، ذات منعطف ذات موت، ولا بأس إن كنت قد همت في طرقات، توزعت الحانات بالجملة والتقسيت، تعلّقت بأول نجم وأبسم وجهه، يا سيدتي لستُ أول من مرت في دمه عُدد الشوق، ولن أكون آخر من يتوق إلى المرح في هيجان البراكين في زمن يكون فيه الصهد حقيقة، وهذا الشخص هذا الرجل وقف عند ناصية الشارع، لا في الوسط، في كل نقطة وقف يُحملك في وجوه رآها غريبة!

أريد أن أحدثكم عن رجل يحمل في دماغه مواخير العالم! واحد يقف كل صباح كل مساء عند انهيار كل صبح، متولهاً مقهوراً هائماً بلا هيجان، مستعيداً الأنغام والطقطوقة، الأصوات والاحتكاك بلا نفع أيها الدراويش! هذا الرجل أحبه ومعه صوته المبحوح يُحب حلاوة العيش وهو محمول على الوجوه — رجل يحمل التضخم، لقد تضخّمنا رجالاً مجوّفين

وفي كل الأحوال فالوضع بسيط وجد مهزوز ومعاقرة القمم تعسر على من يطحن بين فكيّ الاغتراب. هذا الرجل يعاقرها والسفح مساحة ضوء تحضن التراب، لكن الحضيض هاوية، ولا شأن لنا بحصاة النعاس والبقايا الرديئة.

أقصد أن أحب وأدور في عاهة عشقي. أتجول بها في الشوارع أحب أن يراها الخلق بدون تدوير أو مضاعفات، تسطع منها لمعات تشرق في ليلٍ طويل ليلٍ بهيم لا تعرفه ديدان متنطعة، ولو أنني عرفتُ كيف فقد طاوعتني الذكرى وما طاوعني الزناد، لفحتني الحمرة والفجر هارب ويُلح هرباً إثر نغمة توقع يحصدها غثيانه. قالوا عالجه بالنسيان — ولقد هلكوا وتهالكوا فما استمر، أو ولا أجدت التنعيم بما أسرفتُ في النحيب وتنبيه الغافلين؟ وحسبنا بالالتواء رفيقاً وبديلاً، وحسبنا مهادنة الأحباب والديار، حسب الجوار المعاشرة، والبقية في غرف «مثخنة باللذة»، براعة وأي براعة! معذرة هذا رجل، وذلك مات ذات موت وإن لم تفهم بقية النّزال والرزائل. اغرورق في المقلة، معذرة أيها الأحباب إن لم أتابع نشيج الموجة، أليس الوله والتفجع في الطريق نصف إيجاب الحقوق. ويُجدنا وصف الصحراء وذكر الأحبة وعافي الديار، وقدمنا لكم زمن العراء والنوافذ مفتوحة على تمرّق الشوارع، ونوهنا بعشق المجنون وريح الخزامى، ولا تسَلْ عن نواره حيناً فمن تجيب ومن نسائل؟!

رجل أحبه، طالما عشتُ معه همومي، وتدرجتُ في مراتب العشق — بيد أنهم قالوا إن أول كتابٍ نظري نعرفه في نظرية الحب هو لابن داود، واسمه كتاب «الزهرة»، ولقد كان متصوفاً وعاشقاً. وابن داود يبدأ كتابه، عن كيف ينشأ الحب، وهو سؤالٌ صعب، وهو يقول: إن الحب ينشأ بالنظر والسماع، وتكرّر النظر وتكرّر السماع، وهاتان الحالتان اللتان تنتمي إليهما أولى مراحل العمل لنشأة الحب، إذا تكررَت الرؤية والسماع نشأت مرحلة أولى هي مرحلة المودة، وإذا رعى هذه المودة ولم يضيّعها نشأت المرحلة الثانية، وهي مرحلة المحبة، وهي عاطفية متوسطة، إذا رعى المحب صفة المحبة ولم يضيّعها وصل إلى مرحلة أخرى هي مرحلة الخلّة. وإذا رعى المحب مرحلة الخلّة ولم يضيّعها وصل إلى مرحلة الهوى، وإذا رعى المحب مرحلة الهوى ولم يضيّعها وصل إلى المرحلة الأخيرة، وهي مرحلة القصة.

ومن الكلام ما يقول إن القصد ينشأ على شكل دائرة، وكل المخلوقات تُمثل نصف الدائرة؛ ولهذا فكل مخلوقٍ يخلق نصف الدائرة ثم هو يبحث عن نصف الدائرة الآخر ... وإذا وجده أصبح كافياً. في أقصى الزقاق بين الركن وتحت انحناء الظل، وناديتُ أُمي

فلم تسمعني، كان الرجل يُمر وقد شط المزار وتلك الرياح تهذي، وهذا الموج على عروقي يبتل بي، فمن يسمعني وقد هربت أعصاب البحر ... المراحل التي تدرجت وعلى دماغي تراكمت كنتُ فيها أنضخم، تنتفخ الأوداج ... هل من سؤال؟ ... أنت هل يعينك الأمر ما دمت تقرر سيفاً بسقف وجداراً في قصيدة مغبرة؟ ... وفي كل مرة تهوي ساقٌ على قدم ويرتجُ الوقوف بلا سير، شيء مفجع لكنهم ينصبون الشارات والسلالم بلا سأم، لا داعي للتعجل فقد تضيع جثة المارد في بحبوحة التقاعد. قد تخسأ في صولة الإنكار أيتها الملامح أعطيني النضارة والصقال، صفوف الماء البحر وشاربي أملاحه، أعطيني السمكة والتمساح. لقد مصصت الخمرة، والنهر دوماً يهرب ... وتتلامح بعد الموجة في عينيك، تدافع الحزن لاهناً إلى إيقاع النشوة، تتلامح زوبعة الهذيان ... فتعالي أرقصي على الضفاف، كان الفقراء يسرون يتمرغون بلا ضفاف، ووقفُ والنهر ملء نفسي، وقلتُ سأستنشق بلا افتراء عليكم، قد أعذر البلهاء في احترافهم للبلاهة، لكني أرقصتُ بين أصابعي أخرى ناعمة، تعلقتُ بأطيايف الذوبان وتمايلتُ بعدها عساني أدوخ وأنا لا أطلب شفاة أي زنديق؛ فقد جاءَ تني ووجهها أبيض مثل ضباب المدن الحقيقية، مثل ابتلال الوجوه في مواسم المطر الحقيقية، وغنيت يا حبيبتي، لقد سافرنا جدلنا الحبال وقلنا أرقصي أهداب عينيك — في ركنٍ ما عند منحني الظل باللهاث، قبل أن ينكمش الجلد وتتورم عيونٌ محمرة على الدوام، جئتُ وتحللتُ في جسدك ... فتبخرتُ الأجساد.

أَسأل: كيف يسير الناس في الشوارع؟

أخطروا عرّافتكم ومفتي الديار، رجال الشرطة والنجدة والمطافئ وقوم لوط، وسدوم والسادة الأولياء، وسيدات المجتمع وباقي الفصائل، أخبروهم أن حالة طوارئ طارئة طرأت على مخلوقات ما نعرف إن كانت طارئة، ولكن لقد طرأ الطارئ والطيور هاجرت والرجل أخذ يتزحزح من ربوته، خطأ خطوات يميناً وشمالاً وتنتهار الصفوف، اقترب منه واكتفى بالانتظار والنظر. عبثاً نحكي للموتى ...

انكفئوا، وكان يا ما كان أن الرجل للموتى بلا موت ذات موت، مرّوا أو انكفئوا، وكان يا ما كان أن الرجل تزحزح من موضعه، دغدغ بلا رجوع أو مواويل للحزن أو البهجة في ختان رجال تجاوزوا حد الختان. جاءت النجدة، وانطلق صوته ... وكذا يقولون:

أقيموا السراقات، اليوم عيد طقوس الرجم والصعود، لا ينبغي لأحد أن يفهم، الفهم وقود للهلاك السراقات، هكذا بالمفاجأة ودون تمهيد، لماذا نضيع الوقت في التفكير، أية

سرادقات؟! وفي المساء لعل البرق وخلصنا الأرض تهتز، وقيل: سرادقات للضحك، وقيل: هلموا أيها الناس، لا حشر ولا صراط معوج، الطرق المؤدية إلى حلبة الريح عبودها — أحببنا الاحتفال بختان الرجال الكبار ومعاقرة قمم هزمتنا وظل ماحل، شمس رحلت مع الطيور هاجرت، وأحببنا أن نعوضكم عن خسارة مسابقة وطرق لما تُعبَّد. قليلاً من الضحك، الضحك شفاء للقلوب، مزيداً منه، ولم يفجأ أحد. الخلق يجيئون ويذهبون يغنون ويولدون ويضحكون، وحكايا السادة والأولياء! مضحكة ... ثم ارتفع الستار بعد أن كثر الهمس، وتم افتعال حالات الطوارئ لأوضاع مزمنة: لكم مشاهد جديدة للضحك، اضحكوا جميعاً، وكان الناس من قديم يضحون يضحكون. كخ، كخ، كخ، كخ ...

أصوات في الهواء الخانق

- أحوال الطقس «زفت» والبرد في الداخل شديد وأنا لم أعد أطيق هذه الحياة!
- أنا من رأيك؛ فالدنيا صعّدت إلى مخي وانفجرت، وأعضائي دائمة الارتجاف.
- لكن، ماذا تقول لو لم يوجد «ذهاب العقل» ألا نكون قد انتحرنا من زمان؟
- ما أحلى أن يسترخي الإنسان ينسى شيئاً فشيئاً هموم العالم كلها، ولكن بالرغم من ذلك، لا ينبغي أن تنهزم، لن نعطيهم الفرصة ليُلموا رفاتنا، لن ...
- أوف! إننا رفأت وكفّ، يستطيعون لَمَّا متى شاءوا، ولكن لأنهم يعلمون أننا نقف عند ملء أشداقنا بالفقايع ولذا تركوا الزمان، جرّب مثلاً أن تنزل إلى ... حاملاً ... وخلّك وأمامك ... ماذا سيحدث عندئذ؟
- أنت وهو كُفّا عن هذا الهدر، انصرفا لما هو أهم، أو ليذهب كلُّ منكما إلى أوراقه فيسجّل فيها هذا الهدر، أوف! انتبها قليلاً حواليكما، إن الحياة تنزلق تهرب، والشفاه، يا إلهي تأمّلا جيّداً حلاوة العيش.
- صادق واحد آخر على هذا الكلام:
- نعم، نعم ذلك الشخص أعرفه جيّداً، ذاك دأبه، إنه دوماً متوتر قلق كأنما يحمل هموم العالم فوق دماغه، أوه! كفّ مأساوية! كن واقعياً! ألا ترى أن العالم بخير؟! ونشرات الأخبار تؤكد أن كل شيء على ما يُرام وأحوال الطقس جيدة، وبناءً على ذلك فالبلاد ستزدهر هذا العام، سترتفع الأجور وتصبح الخمر رخيصة، وهذا أمرٌ خطير الأهمية، ستزدهر البلاد هذا العام والذي يليه والذي يليه والذي يليه والذي يليه والذي يليه ...

وهنا ارتفع صوت المغني من الفونوغراف:

«أنا وأنا شُوفُو لحالتي
أنا بعدا كُنْغَنِي والزِين أَقْبَالْتِي.»

– أوه! هذا المزج مرةً أخرى، أَلْقَمُوهُ حَجْرًا أو إسْفَنْجًا أو ...
– لماذا يا أخي، إنه فَرِحَ نشوان أطربته الحياة وملامحها، إنه واقعي لا يشبهك أنت
مَنْ تعيش على الوهم والأحزان وتنتظر الخواء!

... أعلم جيدًا أن «د» على الرغم من مرحه ولامبالاته يحمل بين جنبَيْهِ قلبًا مليئًا
بالندوب، لدرجة أنه فقد إيمانه بكل قيمة أو شيء، يهْمُهُ الآن أن يمرح ويغني ويسكر
ويضاجع في آخر كل رحلة، ولحظتْهُ تنفك إزاء عَيْنَيْهِ كل متناقضات الكون. أحرق أوراقًا
كثيرة ذات ليلة، وأحرق معها ما كان يحمل في نفسه، وقرَّر ليلتها أن يخرج إلى العراء
ويواجه القردة والأقزام، غير أنه اكتَفَى أخيرًا بأن يدفن نفسه كل مساء في حانة الأقدار،
ويصفع الليل والنهار بكأس خمورٍ رخيصة.

– دعوا الناس يمرحون.

– دعوا الناس ينتحرون.

– دعوا الناس يسكرون يضاجعون يخاتلون.

– دعوا الناس يقرءون.

– دعوا الناس يخرجون إلى الشوارع ... يصرخون.

ويرتفع اللغظ ويختلط الكلام، تتضارب الأقوال، وكل يغني على هواه، وتتصادم
المحاجات والاعتراضات ... هكذا ينبغي أن يكون الحال وليس كما تدَّعي والواقع فيه
تشعباتٌ عديدة، والوقائع لها أبعادٌ هائلة، والوقائع لا بد أن تتصف، والأدمغة ينبغي أن
تفرقها، وأنا أقول وأقول قول الحق حتى نزهق الباطل ويقوم الحق. يلزمنا أن نقيم
عليهم الدنيا ونقوِّي التناقضات وننقلق القاعدين ونقوم سلوك الواقفين وأن نقارن عالما
«القاعدة»، بدونها سنقع في الشَّرْك والقفص أكلة سائغة للقردة ...!

ويدخل الحديث، تضطرب الأنفاس، تتشابك الأصابع ويتجعد الجبين. صوتٌ خافت
أو هامس، آخر مبجوح، صوتٌ مدوّ، آخر مخنوق، يتلجلج الكلام في الداخل وكأن قوةً ما
تخنقه في الحنجرة قبل أن يتنفَّس على الشفاه، وبالرغم من أن الكأس أو العروسة تُغري
على الفاصل الخشبي، فذلك لم يكن يمنع الجماعة من أن يمتد بها الحديث إلى الحد الذي

تقلب فيه العالم في كلمات وتزلزل الدنيا والآخرة! تخطط وتهدم وتبني، تثقب جدران المجهول تملؤها رغبات ملحاحة في أن تبلغ المسيرة أقصى سرعتها وأن ترسو قريباً السفن التائهة ...

كان الحوار جحيماً يشعل الأكوام التي تتجمع مع توالي اللحظات وتظل تصنع بؤراً يغمرها السخط والسام وقلق مزمن وحيرة تثبت عن المسالك المفتوحة داخل المتاهة. الحوار جحيم يشتعل وسط المجموعة وينقذف الأنا والآخر في دوامة محمومة.

الخداع، المخاتلة، الأقزام لا يتورعون عن مواجهتنا بالأعيهم المكشوفة. الضرب، الحصار، التماسيح تضغط بين فكَّيها، الآلاف المعلقة بين أرضِ هاوية وسماءٍ خلوية، والذين يسحقهم غيْفٌ معنكب ...

النبابيت التي تحطمُ الرءوس عند منعطف كل شارع وزقاق.

أُخرجوا أعضاءكم إلى العراء، انتظروا لحظة الصفر.

لغموا الجثث، لغموا الزمن التائه.

انطحوا القباب والأسوار.

الدم الذي يصبغ الأرض الجدران محفور في تجاعيد الزمن المهترئ.

وينداح المد، تتواد نبرات العنفوان، تلتحم الجماعة في غمرة انصهار، بيد أن البخار ما يلبث أن يتصاعد خيوطاً رفيعة، ويغمر ضبابه فضاء المكان. ما يلبث الأنا والآخر أن يلجأ إلى الانكماش، قضم الأظافر، الأمعاء، يسقط الكل في دوائر الأصفار ... جاهزين.

— ألم أقل لكم إن الحوار جحيم؟ وطبعاً ستقول معي يبقى بعده الهشيم ... يا هشيم

الأيام الكالحة، هشيم الشعر المحروق على الرأس ولماً ينبُت. فوقه المسامُ المسدودة، هذا الحوار الجحيمي يعقبه الصمت الزوبعة، انقذفوا جميعاً برضاً أو بغير رضى، لا مجال للاختيار عندما يكون وحيداً وقاسياً، لا تملك أن ترتخي على الطين تمرغ وجهك، جسدك المنهوك، تغرس القدمين في الطين، وتقول سأعلنها يا للهول! فالصمت الزوبعة هشيم الزمن المحروق، يتوهج على الجسد شظايا، ومن ثمّ لتنكمش جميعاً، انضبط الأصابع بحثاً عن دفء وهَّاب ولتسقط الكلمات التي لم تقدر على التوهج في القرار ... في قاع القنينة الرخيصة الشامئة ضحكاتها أو بسمتها، لكني أفهم اللعبة يا ممطوطة النهدين، في قاع القنينة يرسب الصمت، وتمتد يدك ويدك أنت ويدك ويدي المشدودة إلى الأبعد عن سكرة الزمن، أتلوى في الرعشة الدائمة أمتص القطرات، تمتصني القطرة، اللحظة لا تدوخي ... بعيداً بعيداً أيها ... اليد لتضغط تنكسر القنينة، أوف! افتحوا المسالك، الآن سابدأ مسيرة همجية، هل تفهمون، همجية!

– في صحة الزمن الضائع، اشربوا، أنا الذي سيدفع هذه الليلة!
(سنشرب حتى يسقط الخَمَار في بركة النهار).

مَرْحَى للعطاء، هذا واحد من العباد ينفق ذات اليمين وذات الشمال ومن يعلم –
الزميل «ع» يعرفه الجميع بزيفه، وإن كان يداري أوضاعه بابتسامات تتلون باستمرار،
التلون هو الصفة الوحيدة والحقيقية التي تميزه، أما باقي الصفات فلا تكاد تثبت. سريع
الكلام متعجل في إبداء رأيه بلا تفكير؛ إذ الأمور مبنية عنده على الارتجال، يحب الناس
جميعاً ويحقد عليهم جميعاً في الآن عينه، لكنك لا تستطيع بتاتاً أن تميّز بين حقه
ومحبته، يقصد دائماً إشعار مَنْ حوله أنه يحمل هموماً ثقيلة وإن كان وجوده بذاته
أمراً عسيراً على الاحتمال. يقصد إفهام الآخرين أن همومهم وتعمهم هي ما ينغص عليه
الحياة! ليس غريباً أن يكون «ع» على هذا المنوال، ليس غريباً أيضاً أن تتضارب وجوه
سكان المغارة وتتباين وظائفهم، منطلق الرحلة هو الذي يجمع، بيد أن القنوات ما تلبث
أن تتفرع في اتجاهاتٍ مختلفة، وليسبح بعد ذلك كلٌّ في قناته. البعض يأخذ الرحلة على
أنها غيابٌ مطلق عن الغياب المحدود. والبعض الآخر تبقى عنده الرحلة في المغارة حضوراً
جد ساخن، نعم، حضوراً في قلب متاهة الغياب. وتترادف الأشياء لتطعن الأنا، تذريها عبر
تفاهات الأشياء الأخرى، ذلك المساء وكم من مساء، ولتنزل الحسرة على القلب، ولتعانق
الذكرى النسيان، ولتتجمع ذرات الكآبة على بعضها لتكوم خلايا الحنين والحسرة على
المفقود، ليصطدم الكائن بالمعدوم، النظرة الوالهة بالأخرى المنحسرة عند الجفنين، وهي
عندما تهبط فلتغوص في قاع كأسٍ ظامئة أبداً تسيل على حنجرة تجف أبداً ...

لكن الوجوه تتضارب، تلك الحسرة التي في أعماق النفس تكون لدى البعض بؤراً ما
تني تتسع ويشتد تجوفها، لا تسَلْ بعدئذٍ بأي شيء أو أين الصدق من الكذب، أين الزيف
وأين الحقيقة، طالما غامت الرؤى وتلبست الكراكيز سحنات مستعارة؛ من ثم، فأنت،
فضحككتك لا تغريني بأن أعانقك، يا أنت وأنت وأنتم من الكثيرين الذين يشكّلون أضلعاً
وأجنحة لهذه الجماعة التائهة، لا يوجد ما يُغريني لأقول إن رحلتنا واحدة، وإن الساحات
المتصفة ملتقانا، هل تسقط تلك الأقنعة كيما تظهر الملامح البشعة، حتى الصدق يحشر
في الزيف في الموقف القدر، مهلاً، ما أقل الجباه العالية! كبيرة هي الرءوس والأذان المغطاة
بالقش، الحمى ليست في أوصالنا بالقدر الممرض، نحسّ الدفء كثيراً، نهرب إلى فراغنا
لنطل على الآخرين من كُوى ضيقة، ومن ورائها نفتتن بأنفسنا ونأخذ في الرشق والإدانات.
... وهكذا فأنت يا «ع» لا تكف عن ادعائك بأنك منهم، من القاع، غير أن القاع يظل
بعيداً عنك، وتظل تعاني الانسلاخ إلى غاية نفسك. وتظل تتدحرج عبر السلالم الزئبقية،

تتسلق وتتزلق وتتسلق، تحاول الإفلات من أقرب المسالك ولو أنها قذرة يا قذارتنا، أوف! لا يهم.

... العبوا جميعًا بأوراقكم، اخرجوا بشتى السحنات إلى الخارج، تأملوا أنفسكم جيدًا في المرأة، وأدعوا بعد ذلك أنكم تحملون هموم العالم! أوف! النغمة بليدة مكرورة تَقَرَّزُ - كَفَى.

... ها ها ... الله الله آه آه وألف آه ارقص عربد حنانك يا ليالي لم تُعش، دع النغم يتقطر إلى كل شريان ليذيقه الحسرة الهمجية.

في تلك المغارة، وفي كل مساء، كان صوت «ف» صاعدًا من حنجرة مذبوحة ويأتي مشروخًا، ليردّد لازمته الشهيرة، وكأنما ليصادق على الحوار المشتعل في داخلي:

«الرعب في كل مكان
الزيف في كل مكان
القتل في كل مكان.»

تأتي اللازمة فتشيع الصمت المشحون في المكان ... ويلتفت الخلق «إلى بعضهم» حواليتهم، يتلاشى الضوء واللون، تَمَحِّي الملامح، تتزعزع الأشياء من أمكنتها، تستحيل اللحظة والمكان إلى أطرافٍ زئبقية ... وأظل أنظر إليك أهدق فيك، أحب أن آخذك إليّ لتعرّني معي هذه الأيقونات، أنجعل كل رفقاء الرحلة يواجهون أنفسهم والآخرين، كيما نوقف التعثر داخل المغارة، أنت تعلم أن الأصابع التي تقدر على حمل القنادل مبتورة، بترتها جنيات السرايب، إنما الضوء موجود دومًا في الأحداق الصافية، محمول في عينيك؛ ولذا، فأنت تبصرني وأنا أبصرك، تبصرنا جميعًا، تشقنا نظراتك صامت دائمًا عدا اللازمة الشهيرة:

«الرعب في كل مكان
الزيف في كل مكان
القتل في كل مكان.»

تدور في المكان كما تدور عيناك في محجرتيهما، حولنا، في وجه ممطوطة النهدين، ويُعيدهما ثانية إلى الداخل، وعندما ينسدل الجفنان، فذاك تاريخ آخر يعاود حركة الاجترار في طي دائم، ولنتوكل على الله، تستأنف المسيرة، من جديد، من جديد، من القاتل الحقيقي

قابيل أم هابيل؟ ازرعوا وجودًا مجنونًا واقبروا رخاوتكم في الأرحام التي ما تكُف عن الإجهاض، ومن القاتل عينك أم دمي أو وجه الرب أم تاريخ العشيرة المهزوزة؟ الكلمات الصادقة الصادرة منك تحرق، هم لم يتعودوها، تعودوا أن ييسموا في وجوه بعضهم، أن يتداولوا كلامًا جاهزًا وأن يطلقوا أحكامًا سريعة ومبتسرة في الأغلب. الصدق يطهرك أنت والنظرة المدثرة تثب بتداوم، والحزن يتكاثر في الداخل هضبة صلدة ولا يلبث أن يتفتت على أسارير وجهك. كنت أديم التحديق فيك. كنت أجد عندك ذلك الحزن والتذمر الهادئين والحارين اللذين لم أستطع الثبات فيهما، كان القلق يفور من أصابعي وشعر رأسي، لم أكن أملك لحظة — أن أهدأ أو أبرد الأحراش، فكل ما في الخارج يثير يشد يوثق يحرق عصبًا عصبًا، ويضحك إزاء مصيره المعتم. والجموع منهوشة، تلهث، تلهث في العراء، الحصار شائك، ولا خيار في الانقذاف في نفسي وفي الآخرين، رفع التوتر في كل لحظة، أبشع كل بسمة حقيرة، كل قامة قميئة، كل وجود زائف، وحيثما وليت وجهك فالأوثان منصوبة منصوبة وتنطق! توزّع الحكمة على العباد الساجدين، والعلم والهداية! تهديهم سواء السبيل وما أدراك ما سواء السبيل! ماذا تريد أن أصنع بنفسي إن لم أقمها بالالتهاب وإن لم أثبتها في كل الجبهات كيانًا بهوية، تلك التي لم تنجب بعد، على حوافي وجود عائم لا يعرف من أين يبدأ ولا أين ينتهي ... نشعل النار في الكلمة في اللحظة في الذات في الآخر، وهل تنفجر، هل تحتك السحب والغمام العاق وتمطر بالضفادع والجراد والقمل على الأرض الموات ...

عندما تفرغ القنينة أو تذبل، سيان، ينقبض الوجه الرابض عند الزاوية، تأخذ الكلاب في النباح، يستجمع كل نفسه بصعوبة، ويبدأ حساب الربح والخسارة في دورة الزمن، في دورة الكائن المهزوز، في دورة حياتنا المنخورة، يبدأ بالأحرى حساب الخسارة؛ فدائمًا كنا خاسرين، لا نعلم متى يمكن ربح الأوثان المنصوبة — وبعدها، بعد القيل والقال وكثرة السؤال والحزن والتمزق، فلتبدأ رحلة التيه الجماعية، لنمخر عُبَاب أو صدا المدينة المنسية، ولننفلت عبر الأزقة الخلفية، ولنعر عاهاتنا وعوراتنا في الشوارع العارية، فلا الليل يبكيها ولا القمر حبيب العذارى! لا الصمت ولا الأحراش، لا أحد يبكيها. نعم، الجدران دائمًا منتصبية، المشانق وحدها لم تُنصب بعد، الإسفلت بارد وجوهنا باردة، الأعمدة مقوسة، والكلاب تنبح في كل المداشر أذكركم، احملوا دائمًا «الهوية» ها هو، ها هم أقبلوا:

«الربع في كل مكان،

الزيف في كل مكان.»

— يا جماعة، استعدوا، أخرجوا أعضاءكم، أقصد أوراقكم.

— أنت وهو أين كنتم، يبدو أنكم منسجمون.

— ...

— انطق.

في ليل المدن المنسية في ليل الأرض الموات، لم تكن سوى الكأس فاعرة فاها ببلاهة
باحترجأج أكرس.

الثقل دبّ تراكم، اجمعوا أشياءكم، لم يبقَ شيء، الرحلة ذات النهاية الباردة سخونتها
تحيا بين فخذين سمرأوين بيضاوين، ولأبقَ أنا هنا مع هذا الشبح الجاثم مع هذا الحوار
الخانق ...

يا أمي ما هو لوني؟ كم عدد أصابعي؟ اسمي؟ إننا نسأل لم تعطني اسمًا، لم نُعطِ
أنفسنا أسماء، قال، قال هو: ما هي هويتك؟ يا هذا، أسأل أقربائي آبائي سكان الحارة،
أسأل العشيرة، لا لا تسأل هؤلاء، اسأل الشوارع والجدران والقباب والجموع الخاملة —
عندها الجواب.

الإنسان حيوان مهووس بالذاكرة

الصمت الصمت، وقوافل النسيان تدحرجت في زمن الأهوال والخرائب. وأنا سُددت من عروقي. سُددت إلى أعمدة لم أعرفها، لو أعرفها، لحرقتُ النجوم، حرقتُ ذاكرتي على زمن أعمدة أهوال طقوس تشدني، تنفصد في العرق والروح، تسكعني أسكعها نتسكع في مداريته. لا يبالي بتوقنا أحلامنا المستباحة في بدء الخطو أول النشر نهاية البشرية مع الطوفان، عندما كنتُ قد شربتُ بحار السأم والقرف عاودت وأخذتُ من جديد أتاخر فيها بالتقسيط. لقد تاجروا في جثتي بالتقسيط، عضواً فعضواً، هربتُ الذاكرة، لم تتحصل بين شراكات غربالية، غطوا الشمس بغربال، أوه! جربوا ولتنطفئ نجوم الليالي المُقَمَّرة المتلاثلة على الأهداب، إنني مناراتٌ محروقة، أضواؤها مزروعة في كل الموانئ التي طُورد فيها الضوء، أود لو أكون، لو كنت، هل أكون؟!

أقول إنني كائن فيها قبل رسو سفن الأجيال المرعوبة، بعد خروج سفن الأجيال المنهوكة، من تيه لتيه ولتيه، مرة أخرى وألفاً لستُ أعلم، لتيه فوق، بعد أن تجاذبته حدائق بابل، يا بابل تاجروا في الذي أردتُ أن أكونه. رغبتُ وأجهضت الرغبة في حلق متطاير اللهب سخن الدم، وهبَّ بعد ذلك يا صقيع؛ فأنا في الريح كنتُ بدروع حروب الزمان، مثخناً بالجراح ولا موت، الدم ينزف، نزف في خدود الأرض الملغمة بجثثنا، إننا ألغام على كل حال، هل تفهم هذا؟! لا تقربوا، حذار، حركة واحدة ويصبح عالمكم شظايا، بلا ثقة، الرعب في الحداق في الأقمصة والربطات الجديدة، في الوجوه الملطخة والممسوحة، العالم مرة ثانية يحلق بغاز رعبي، ها، لقد انتصرت، دون كيشوت جديد، لكم التأويل، عندي بقية من شظايا، عندكم الكلام وشبه الكلام وبعض الروائح أحياناً، وأعضائي القديمة التي تاجرت بها في زمن النخاسة والأجيال المرفوضة.

– لو أحكي ما عندي، ما ليس عندكم ... لكنكم سرقتم مني الرغبة، تاجرتم بجثتي الصدئة، تزعمون صقلي من جديد، تطهيري من أدران الغوص والتمرغ في المستنقعات. هاه، انتبهوا، إنني أفوح، عُمرنا بالتلوث، أعمارنا وأيدينا وأدمغتنا تلوث، بلا ميكروسكوب بلا أقراص للتخدر، بلا غازات منومة، بلا بريق النيون أو الخيالات الهاربة، بلا جدوى ما أنتم لستم جدواه، لن يصلح العطار ما قد أفسد الدهر الغشوم، لقد تلوثنا ولم ينتهِ شيءٌ بعد، ليست حتى البداية! إنه الترنح بعد الاستيقاظ الأول، تعثر في الظلام خلال دروب تفوح بنا، تتصعلك فيها إنذاراتكم وأصداء أصواتكم الخشنة، مكروفونات ولا أبواق، ولا مهرجان إشهار لعاهاتنا، إننا مخلوقات لا تكون ولا تستمر إلا بعاهاتها، ليست أقداراً لكنها هوية، عاهاتنا هويتنا، إذا أحببتم وكان هذا يرضيكم فالتلوث في المستشفيات صلاة في كل لحظة! عدّوا اللحظات لإحصاء درجة التلوث، عاهاتنا طقوس حضارة جديدة، ولادة مخلوق مشوّه بالرعب بالجوع بالعطش دائماً ... وهذا ما تجهلونه، مهووس بمؤامرات الذاكرة، شيء بعيد المنال، عسير الخنق، تاجرتم بأعضائي، قتلتم في الرغبة، فلم يبق سوى الصمت التلويح لقوافل النسيان، لكنني مخلوق مهووس بصنع انفجارات دائمة في الأدمغة الناعسة، بصنع مؤامرات الذاكرة والساحات!

لو أحكي ما عندي، لو صورت طقوس العهر من جديد إلى قديم ... فالقديم عُشنا المحبوب والمُعار، من المقصورات والظلال التي يسترخي فيها العنكبوت، لو قدرتُ على تصفية حسابات الزنزانة، زمن الخرائب والأهوال ... أن أجدل صفائر المغنية الزنجية على سقوط الإنسان، تشهق، ودمعة في العين وقالت بها سأشفي أفواهاً وحقوقاً ضامئة ... ولو قدرتُ أن أصفّي عهر الأيام، والاسترخاء، وقنابل في اليد ما انفجرت ومحاجر ما تلاً في فيها النظر، وجبيني الذي ظل مزبداً في وجه ساحر أبله، وجوه كائنات ممسوخة، جرّته إلى مغارات سمّدها صخور النسيان، قهقهات في فضاءات بهلوانية وعيون مهرجانية وأحماض سامة أفقدتني طعم كل شيء، الجثة المرفوعة على العلم الممزق المغروس في الأحوال، امسحوا وجوهكم بالطين، مرّغوها في الطين، إنه وجهي وقامتني وظلي وصلبان تحكي عمر التاريخ وضافف معزولة وُثِدَتْ فيها أجيالٌ جنينية، وأين أنت يا رحم، يا صندوق العالم المحنط، يا نحن، يا خبو الرؤيا في صندوق التحنيط؟ أزقة، مساحات محفوفة النتوءات، والجميع بلا أغطية أو دروع، افتح جروحك القديمة فلا مكان لجرح جديد، هذا التقيح، اغرسوا ما شئتم من رماح سموم خنق، ليس عندنا مكان لجرح جديد، لكن لا بأس، فالجرح يريد كهربة في زمن الصقيع والخرائب. وأنت مغلول لا تحرّك ساكناً

فابقَ حيث أنت؛ فالزمن بدوره ساكن كما البحر ساكن، مثلما المغارة مقفولة، ووجهي أبداً مشدود إلى الريح، يا هذه الريح، كيف تعود ذاكرتي إلى موسم الزوابع؟ لو جرّتني إلى البحار الهائجة، لو اصطخب الموج شربتُ مع البحار، لو سعدت بلحظة واحدة من الصخب الحقيقي، لو وقفت في كل مكان، وكنتم وعدهم وحببتهم التي يرتقبون. ماذا تقول أنتِ يا مخصي القلب واللسان؟ إني لستُ كذلك، إنني ضاجعتُ امرأة العهود البائدة وها هو الزمن عاهر من كثرة مضاجعتي له. وتأتي حبيبتي بعيونها التي تغار منها زرقة البحيرات، حبيبتي، بحيرة ومستنقع، فهل يلتقيان، وطربي في ليالي الشجن وتسْلُقي للفخذين، وهمستُ خلال السكون، وكان أن جاء الفرج مرة وراح بلا موعد، وأمد يدي من خلال نوافذ صدرك، إليك حبيبتي طوابق من حصار نفسي وأدراجاً من حنين هارب، ومحبة تخنقني ما تبين، الدفء كم عندك منه؟ أعطيني بعض الدفء، أعدك بالكثير ... تلجم الحنجرة، تختلج الدمعة الشهقة القلب واللسان، وأنتم هناك، وقوفاً بها صحتي، وأنا لستُ قادراً على الحكاية بعد أن سرقوا مني أعضائي، تاجروا بأحلامي وهوسي، صنعوا مني خطوطاً وخيوطاً ملوّنة في مهرجانات الضوء الهارب، قتلوا في الرغبة، بلا نيون بلا أنهار، بلا غلب للقرف، بلا ضجيج أو طنين.

ها قد عادت لي حركتي
والآن سأراودكم عن أنفسكم!

...
...
...

بلا ضجيج، بلا عويل، بلا ناطحات سحب، في أراضٍ قفراء جوعى؛ فقد رحل عني عضوي، حركتي، وهكذا فقد امتلانا بإمناءات أجيال مكبوتة، تتنفس الدم والصيد، حملت أعضائها في وجه كل شيء، هل بقي شيء ما لم تمرّغوه في قماماتكم، ما لم تسرقوا منه براءة الحلم، نقاوة التوهج، طعم الآتي فنتحسّس فيه ما فقدناه، نفقده؟ — ويا زمن الغدر، لقد غدروا بنا وما غدروا، غلقنا في المشانق. لكن الدم صامت، سوطنا بكل ضروب السياط، لكن الآثار لما تنطق، ليالي السكر النادرة، كم رغبتُ في عدة انسطالات تحملني على سروج فوق خيول مجنحة تطوف بي بين مخادع الأميرات والسيدات المحصنات، يحملونني ما أقصف أو أجندل به أعناق المردة المسوخة في زمن أشد مسخاً، فيه إنسان مهووس

بذاكرته، مهووسٌ بنفسه، مهووسٌ بجيادٍ محمومة أضاع لجامها. أضاع لجامه، أضاعوا زمانه، أضاعوا! إنسان مهووس بأحلام مفرقة، بالسياط لا تكف عن تقديد لحمه الهش — ولماذا تأتون بعد هذا تلومون ما حصلته في مسيرتي من اندحارات وانكفاءات على «أزقة» إسفلت وأزقة الأراضي الموبوءة؟ ما حصلناه جميعاً وحققناه، ونقيم مواسم طقوسنا، لستُ ألام ولا أعلم لكم أن تعلموا، عليّ أن أصمت، عليّ أن تعيش الغيبوبة مثلما عشناها قبيل بدئنا، لا بأس، تخمروا وتعفّنوا، اسكروا أكثر، فجروا عقدكم أكثر، أقيموا ما قدرتم عليه من الحواجز، لتسقط الحصارات أسقطوها، حصارات المستحيل — جدي الكريم الطيب الذكر محنط الآن ومن قديم لا يقول شيئاً، قال ذات مرة بضع كلمات ومضى، أراد لي — أن أقضي حياتي في فك الألغام والطلاسم؛ هل يمكن هذا، هل يُعقل هذا؟! اقبلوا بلا شجاعات مدعاة، بدون الانكماش في أفعال الرجاء ولافتات المفاضلات الباهرة، بلا معنى.

الآن وقبله رجوتُ، الآن في السوق الحمراء وليس السوداء، يا موكب النور أوقف سيرك الساخر، إننا لا نريد النور، نريد أن يتهشم كل شيء، أن يتعفن، أن يتعفن، لن نتعفن، أن نتعفن.

الآن وبلا ضجيج، وبلا طبول، وبلا افتراضات أو مفاهيم أو مناظرات فلسفية، الأنابيب عامرة، لا نشور بعد، لا تشاؤم أيضاً وبدون انتظار، دون أحلام مباعة في المزاد السري، بلا أقداح غيبوبة ...

هل تستطيع أن تكون في رحلة إنسان مهووس، مذبوح القلب مذبوح الشفة؟ قتلوا فيه الرغبة، يا جدي اللعين الكريم، صه، أين خرافات الضياء الموعودة — هل من مؤامرات جديدة؟ ... قال: اصمت.

قال الثاني والثالث: صمت صخب سحبٍ مختلطة، وانتفخت البالونات، وكنتُ قبلاً في كل الاكتساحات، أيها الناس أعطوني صمتاً، أعطوني طينةً جديدة، أعطوني حباً، نعم حباً!

أحياناً أنهب مع أهوائي، أتابع مجرى تياراتٍ هوائية، إحساسٌ ما يقول لي إنها باردة، يقول لي إنها عقيم، أو ليتني ما انقذت وراء الخطوات الهاربة إلى الخلف إلى الأمام مفقوداً، ضائعاً في دروبٍ معتمة، في حدقاتٍ منورة، فقالوا أعطيناك كهرباء تنير طريقك، تقودك نحو مسارٍ فيها الضياء، باسم الهدى الضاحك أيها السيد، باسم ما حسّه في أحشائي؟ باسم قطعة البنجون التي ما فتئت تبحث عن رجلٍ ما تجرّو على تكليمه عن أزمتها. أزمتها أغوص في قرعها فخذّيها المحروقتين، نقطة. جملي كانت تسبق جملي، وهذه تنحدر وراءها،

وأنا هارب من كل شيء. من كل الليالي الباردة، الكئوس المغدورة، لم تُوجد عندها المسيرة التي استدعتنا، أهم ما راقني فيها مؤخرتها، لكن المؤخرات كانت كثيرة، مؤخرات الرجال، وكنت رجلاً وسط القوم — وكانوا يطلبون منه أن يراودهم عن أنفسهم. غير أن الأمر مقرف، أسفي على الغابات المنكّسة الأعراش! أسفي على الجدران الميتة! الأعضاء المباعة في المزاد السري! ومؤخرتها وهي تذهب وتجيء تُذكّرني بتاريخ كبت السلالة سلالتنا — استهلكنا احتياطي حيوانات المنوية في صنع أهرامات بلا ألوان، تعالوا. أقبلوا لزيارتها، الأقصر، أسوار مراكش، الحمراء القفطان البديع عام العملة الصعبة، إننا عملة صعبة في أسواق برودتكم. لا ظل لا شمس لا غروب أو أقواس قزح أو مروج. ندوب عُقد أوديبية مصطنعة، بدون عُقد، أيها المزيّفون، خطبة عصماء، جزرٌ منحسرة في مستنقعات لا مبالاة صافية، أنا جملٌ عربي. قال السخيف لصاحبه قصد التهكم عليه: أنت جمل، إن الجمل حيوانٌ عربي، لم يُجر جواباً، تلعمّم، اصطكّت أسنانه، خبا البريق وهو دائماً خاب، الجمل حيوان عربي وأنا وأنت لست أنا، مطلقاً لن تكون. وأنا من ديار فيها الشمس مكتومة داخل قناديل علاء الدين، ولقد نزلت علينا اللعنة، لعنة الملائكة! يا أمي، أنقذيني من بلهاء سألتني لماذا أنا ساخن، أجبتُها على الفور، لأنك ساخنة ولا تزالين، إنك ساخنة ودربي دائماً متشنج، والكأس كذلك، فيها من سقياي هل من مزيد — وهو يريد أن يدخل المخدع. والهودج محمول على الجمل في طول الصحراء وداخله المرأة محصنة، أحببتُ أن أسير أعانق «الزفت» ألطخ به الطوار الأرصفة الأعمدة العارية، الأحباب الذين التقوا من قبل أن يبدأ تاريخ الالتقاء، اقطر يا دمع إنني حزين، تبيكي الحروق في قلبي الحسرات، لا سأم ولا حلاوة، لكنّه الألم، لكنه الحزن «الحق»، بلا اعترافاتٍ ساذجة أو طلب لأي غفران، دون دفء؛ فلست أرغب في «أمجاد» أفخاخٍ طرية، إنني عانقتُ شوارع أعمدة المدن العارية من سموات الدخان والغبار، ليس عندنا سوى الميكروبات الطاعون الكوليرا الأبخرة القاتلة، لم نُلقح ضد الكوليرا والسل والحمى الصفراء والدوسنتاريا، مأوانا كل هذه الأمراض، مرحباً بجراثيم أوبئة العالم، وضد الأمراض التناسلية، ضد برودة الأعضاء التناسلية — غير أنني أعلنتُ الحداد والامتناع عن طقوس الافتعال.

الإنسان بين الجدران أو موت بلا تعويض

عليّ الآن أن أقدم كشف حساباتٍ طويلة لرحلات الذاكرة ومغاراتها واليد المشدودة! هل أجروا على صنع هذا العمل؟! إن الأمر يظهر أكثر من طاقتي، كما أنني لا أعلم إن كنتُ أقدر على إقامة ظلي الممرغ وابتعاث لحظات النشوة والحزن المنحرفة، أول حكم منكم سيكون وصمي بالهزيمة بالفشل الذريع، بالاندحار خلف دورات الفصول، عدم القدرة على استبقائها، ولو أنني هيأتُ مشروع خلق فصولٍ جديدة، لكن الصقيع جمّد الدم في عروقي ووقفتُ، لم أجد من يُزيل العلق من فمي، وخفتُ أن أموتَ قبل أوان موتي، ولو أن الجميع ماتوا، أردتُ ألا أموت، هل تموت دورة الفصل الأربعة؟ على كلّ فلا الأيام أو الزمان يتعلقان بي، إنني في مدار التيه، أحاول أن أجد لي مكانًا في تعاقب الأجيال، خلال استمرار الأوقات العادية، ينفجر رأسي بعدها، يصقل وجهي بعد صدأ جدّ عتيق، بعد صدمه بمحكاتٍ لا تقدر على كهربته، لا تملك أن تبقر بطن الأرض، ينبجس اللهيّب، ينشق بطن الأرض يبلغ البشر العاديين، لا دورهم أو ما ملكت أيدهم، فالدور كانت وكانت، إنما الإنسان أين هو؟ الإنسان انتهى، هل يحق لي أن أقول هذا؟! يفتح رحم الأرض تصعد الأجنة من أول، فكل شيءٍ عتيق، زمن المتحف، عبّر تسلسل الأعمدة وتداخلها والغرق في تموجات الفسيفساء وزخرفة الظلال والألوان، اختنقت الأصوات. وبرّح الشوق بالحجر، والوله أغنية مدوخة في قعر قنينة تشربني كل ليلة، قبل كل فجر. قبل أن أدّعي شربها، ولو فعلتُ فسوف تهزأ بي آلهة الأقبية، ولن يبقى لي في آخر الجرد بعد انهيار السيقان وتشابكها قبيل نهاية كل رحلة، لن يبقى لي سوى الاتكاء على رأس وأشعار الخيام أمتص منها وألفظ فيها الحسرة المتجمعة في أنفي وقلبي وذكري وأظافري، وهل يجديني هذا؟ لن يكون سوى تناسٍ مرٍّ وبركة أخرى من القنوط أهبط إليها، مقفرة أغتسل فيها وأنا أخالني أظهر، بينا الجلد يزداد تهرؤًا وجسمي يتحول شرائح مقدّدة، قد غمست في كل

القذارات. ليس جديداً هذا الأمر بالنسبة إليّ، إحساس التلوث يغمرنى من الزمن الذي كُفّت فيه الجدران عن الاستطالة، وتجاوزت الأقدام حدود السرير، وما قدرت على الحركة، ومن يوم أن وقفنا نُبْهلق في أوجه بعضنا ببلاهة، لا نُحير صنيعاً. وأمامنا الهاموش يقنات منا من دمنا نتضاءل، لكن لا نفعل سوى أن نُبْهلق ونُثرثر ببلاهة؛ فلم يُعد أحدٌ يتوقع من سحناتٍ مصبوعة جميلة جداً، ولا من قدود رهيقة، ذات خطواتٍ رشيقة في شوارعٍ مزيّنة، تحت سماء تتبول النيون بلا ملل، والشفاه التي تنطلق، طريةً فتية، الخدود طرية، هل نتوقع أمراً من خدودٍ فاتنة مفتوحة بنفسها، إنها لمعةٌ جديدة هذه الرعونة — حسبي الآن أن أنكمش، حسبي أن أحمي نفسي داخل الجدران، أو عساني أحمي ما تبقى من دورة الانهيار.

لا رغبة لكم في أن تتلوّثوا وأنا قدر، أجر ورائي مزبلة التاريخ! مطالب بتقديم كشف حساباتٍ، بلا تحديد، إننا نعوم بلا سراويل، عُراة في مدنٍ عارية، اكنم ضحكك أو سخريتك. كلانا منخسفٌ تحت هرمٍ لما يتشكل أو لعنة بسبيل التدهور. بلا تحديد، إنها مواسم الخلط فيها ولدنا نمونا ونمونا ورحبت بها الآلهة الطيبة، ونحن هل نبغي البديل؟

مدن بلا فجر، وآيات من الورق الصقيل، وحسبي الله ونعم الوكيل، فيها نعوم ننعم الذكر الحكيم.

«كُتِبَ عليهم القتال كما كُتِبَ على الذين من قبلكم لعلكم تعلمون.»
أنا خليطٌ بعد هذا من أعوامٍ وأجيالٍ متداخلة، أشك حتى أن أكون حقيقياً في زحمة الأنوات العادية جداً، رفضاً لكل التساؤلات الباردة، رفضاً لكل القهقهات. إنني خليطٌ من كل ما تصنعه بورصاتكم. لقد توجر في الناس قبل يوم القيامة! ولم أعد أفهم إن كنتُ أتكلم أو أحس أو أنفعل أو أنكش مؤخرتي أو مؤخرته، أو إن كانت هنا ملامحٌ حقيقية لأجيالٍ حقيقية، أو هي شرائط حريرية لديدان القرز، أو رسوم منقوشة على صخورٍ تحت الأرض في حاجة إلى كشوف علماء الحفريات! لن تكون حفرياتٍ أو ميداناً لأنتروبولوجيا جديدة قد يسمونها الخلط أو التداخل، بلا تحديد، بلا ميتافيزيقا، بلا اعوجاج في القول أو تردّد، لهم أن يقولوا ما شاءوا، حتى ولو كنتم خير أمة أخرجت للناس، فلن يزيد هذا الطين سوى بلة. ويزداد التراكم، تكبر الفضيحة في العيون، لكنها نفسها فضيحة، يا عيني عليك يا عيني، وعينيك جابو الغاشي وهو ماشي، والعيون الزرقاء السوداء الخضراء الدعاء الحوراء العوراء، على السيقان العرجاء، على الطوابير التي لا تصنع شيئاً سوى

أنها تعرج محنية ظهورها دبرها وأنا عارٍ ونحن عُراة. أضف إلى هذا مشاهد التشويه، وفيالق الشحاذين، وكل ما تلغط به أشداق الفقهاء والمشعوذين، مع الذي يأتي يروح أبدًا ما يشفي الغليل.

أظُلُّ معلقًا مسروق الأعضاء، مطارِدًا مطالبًا بتقديم كشف حساباتٍ للعابرين، أو للناشئين، أو للرجال المعلقين بأهداب شمس طريفة، وما أزال مطارِدًا، هل أقدر على الفعل؟ هل أقدر على الفعل؟ هل أقدر على مداورة الدوائر التي تحوطني، هل تسمعون حقًا؟ انتبهوا، إنني نتوء بارز، كنتُ محميًا، حاولتُ أن أحميها، حاولتُ بكل ما في هذه الكلمة من تواضعٍ بال، وذلةٍ حديثة، وربك الغالب، أنتبه، بخلقتُ بعدها، رأيتُ الفئران والأرض محفورة، أخاديدٌ وشقوقًا، والغيران في البطون، وهذه فئران والعكس صحيح، والأمر متشابه على كل حال، كشف حسابات معلق بيني وبين الهبوط إلى غارٍ معتم، لعلني أعثر على شيء، قد أخرجه لكم، أ جذبهم إلى الساحات التي تشهد باندحارهم، تُدين فشلي تطاردني بالمطاردة، تحمل كل الطعون غصصًا بإرادة بلا معنى، معنى حقيقي، بلا تحديد، طالبوا الهاموش أو أقصِفوا رقبتني، أوه! نسيْتُ أنها مقصوفة، ليكن، ثلاثون حكمًا بالإعدام وفي كل مرة أشهر في الفضيحة، لكنني لن أطالبكم بالتعويض — دعوني أستمني هوسي، ولا بأس بموتٍ بلا تعويض؛ فنحن نعيش بالمجان، يا سُلالة تعيش بالمجان.

وهكذا فعندما لا يُحس الواحد بشيء، فإنه يسقط صريعًا تحت تهافت الأشياء. عليَّ أن أتأمل الكرسي والنافذة وحذائي وبذلتي الجديدة التي أحجل من ارتدائها؛ لأنني أزداد عندئذٍ فقدانًا للمعنى، المرأة والشروخ على وجهي، ويدي التي تمتد إلى كل منطقة من جسمي في استقصاءٍ غريب، أعلم عما تبحث لكنها تطوف، وأعيًا من التمدد والانكماش والتقرص والقفز، من الشهيق والزفير، أمتص لعابي، ثم أتناول صورةً قديمةً بليت من كثرة ما ارتمى عليها من حشرات، وعيون تحدق حولها في أربعة جدران، والموت طعمه بارد على اللسان، الأعضاء المسروقة باردة الأنفاس، الشمس دافئة في حضان معقَّم، لكن الأحضان الراشحة بالبرد لم تعرف لمعةً واحدة. الريح الصرصر ووجه الرعب المطبق وفلول الصمغ المتربصة لتختم زحف الكل، عليَّ أن أقضم البرد، بلا أغطية كثيفة، بلا ضوء مصبر أو دفء بالمقابل بين أفخاذ أرخص العاهرات. لا فائدة من تكرار أمانني عقيم ودون أن تعض الأصابع ندماً على ما لم يكن، أُشعرنا بدءًا أننا حيوانات تحب القعود، ونحن بحمد الله قعدنا ولا يزال يستهويننا القعود؛ فهذا الكرسي بارد مع السرير، يُصر على أنني عرفتُ الفراغة، سافرتُ معهم يوم اكتشفوا كيف يحنط الإنسان ويبقى جسمه سليمًا، وأنني بدلًا من أن أستفيد،

استُفيد مني وحنَّطوني، وأصاب جسمي التلف، حنَّطوني، هل أخطأ الفراغة أم إن البرد استبد بي؟ وهكذا فالتلج يقضم أضراسي ويصنع في تضاريس التشويه. وهم يشربون يأكلون يضحكون يتناكبون يسرعون خلف حافلاتهم التي ستقلُّهم نحو نهاية ما لم يبدأ، يتجمَّعون، الترمومترات لا قياسات ولا مقاييس أو من يقيس، أضرب في الأرض لا يفهمون شيئاً قط، يسقط الأول فالمائة، ليتراكم الثلج، تجمَّد ولا تفهم، يترادف السقوط، لا أحد يعي ما يحدث بعد أن تحنَّطت الذاكرة نفسها. وفي غرفتي كانوا جميعاً قد سقطوا تبعاً، وبحثت عنهم فلم أجدهم. ولم أذكر متى خرجوا، لا فليس هنا مخارج، لكن الثقب والغيران في كل زاوية ومنحدر، ربما تساءلوا ربما تفسَّخوا، لعل البرد قد قصمهم أو استحالوا ثلجاً يقضم أضراسي، أو ربما نسيَّتهم في سفري إلى تاريخ الفراغة.

والآن فأنا لا أسمع، لا أعي، لا أنطق، لا أفهم ما بي أو حولي، هل الذي يحوطني جدران أو أسوار أم قلاع مدن هرمة أم إنها حضارات شاخت وشعوب جاءت تعيش الزمهرير تدبُّ حولي. لا أفهم مطلقاً، سأحاول استدعاء بعض المشاهد، رسم بعض الشارات، سوف أراوغ قليلاً، قد أجد المخرج.

أيها الجسور متى يأتي زمانك؟

ها أنا ذا بعد رحلة مكدودة أجدني مصروعاً على أرض الغرفة، على الجدران بياض وفي عيني بياض لا أعرف لون الشارع إن كان قد ابيضَّ، أما السماء فقد رحلت بعد أن أمطرت الأرض ضفادع وهاموشاً، وكان الناس وما زالوا يهرشون، ولم يبق لي مكان أذبح فيه أظافري بعد أن أصبحت خارجة لنزيف دائم. وأكف عن الترنُّح في مساحة الخارطة عندما يرد إلى سيفي صوت رجل يتمزق بدون انقطاع؛ لقد مزقت نفسي نفسي، لم أريد أن أستجوبه عن قَرَفه، لم أستجوب الآخر والذي بعده، إن المستنطقين كثر، وفي كل يوم تُملأ لنا سجلات طويلة ولا نهاية، والرءوس العلاقات الأشياء تبدلت دمايل كبيرة، اقتلعت النتوءات المحمية، ورأسي كَفَّ عن الغليان، وصاحبي يأكل بشره، وصاحبي يضاجع بشره، وصاحبي يقبل على عمله بشره، وأنا أين أنا؟ أهبط إلى القاع أستجدي استرخاءً بلا حدود، يقظة بلا انقطاع، صحوه شموساً فرحاً بالمزيد أو بالنزر اليسير، قد تعود لي أعضائي التي رحلت، تستفيق الحضارات الهاجعة من عمر طويل، تتفتت الأساطير الصخرية وابلًا من انهيارات للقلاع والأبراج التي انتصبت وما استطاعت الفلول زحزحتها، وهم جميعاً في العراء مرميئون، ليس الخواء صدفة نهاية، وجرب حظك بعد ذلك، جرب لتجد نفسك

محض خرافة كانت، شئت تقدم قليلاً لتُلْفِي أن الناس تجوَّفوا، لفهم جوف هائل والثور تحدّد قرنه، أيها الثور، زحفاً في مدن العراء والشح، أراضي الفضيحة والرجال الجوف، الأجسام بعد صناديق كبيرة وصغيرة ذات سلالم متعارضة متوازية أحياناً؛ فقد اعتادوا أن يسيروا أخيراً متجاوزين منكسي الرءوس لتبتلعهم حجراتهم أو مراحيضهم، ونقدّم لكم حضرات السيدات والسيدات والأوانس والصعاليك والزناديق وشهداء العالم، نقدّم لكم استكشافاً دراسياً بدون ديكور أو حوار أو بروجكتورات، لا مكان ولا زمان:

يدخل مجموعة من الناس متكئين على الجدران وينتحبون، الجوقة تعزف لحناً جنازياً، الناس رءوسهم منتكسة ويتبولون من الهلع، لا رعب ظاهر، لكنهم هلعون وينتحبون — والدمع لا يكف، وتلتثم المجاري الصغيرة في نهر كبير، لكنني في بطن الحوت أننّذ لا أنتحب لا أفهم.

تلك الدروب أحب أن أسألها عن الجروح التي تكوّنت، عن الدروع التي تكسّرت، عن نفسي التي أسرتها نغمة طارت في رحاب ضوء ما عاد يضيء. ليس عاراً أن يكون الواحد حزيناً على حساب افتعال مرح للآخرين؛ فلقد علقت بالضوء، ما عدت قادراً على طلاق النشوات المعبّأة بأعاصير الدنيا وزوابع الرجال التائهين، في أغوار الأراضي المختومة بالرعب، تلك الدروب أسألها، إن لاقت فرحي فلتهدّه لي، بعد أن يسألها ويعود الواحد إلى نفسه يسألها، بلا اطمئنان أو رعدة، بلا رعب بوليسي، لكنه رعب مستديم يمتد حتى رائحة الإبط، بأن الفرحة تلك الفرحة ظلت طريقهم قبل أن تفكر في المسير، وأنا تهت في ضوء، خدعني المسير، وكنت أنت المبتغى، كنت ذات مرة أتساءل أचार: ألا تزالين نهاية الطريق، لكن لا شيء يزهق النفس أن يتساوى، أن يتعادل كل شيء، أمامك، وأظل في التيه يحملني ولا أقدر على حمل نفسي إليك، لو علمت جماح الوله ظمأً غريباً وعشقاً فرّ من وهج اللقاء، ما عرفت صدق حقيقة اللقاء، وكنت تعدّين باللقاء وكنت أبحث عن رشفة، عن وردة أهديتها لك، كل الحداثك ما حلت في عيني، حداثك بابل علقوها أو تعلقت من نفسها وأنا، لعلك لا تعلمين، مشدوداً إلى الريح، فمن أين أتيتك بوردتك، ومن أين للقاء أن تتم، وماذا يفعل الواحد عندما يجد نفسه مقتولاً بلا قتل، وفي مدن بلا فجر تنام وأنا بها الفارس الحزين. حديث الشوق والإرهاب وصحوة الأجفان الملفوفة، حديث الشوق من عيون ضمخت بأريج الطين والحببية في قلب النجم تائهة عين ترى أخرى في قلب مذبوحة، حديث الشوق رحل عنا مرة عاد إلينا في فجر في أمسيات يتيمة ولا من يترك للحنين مسالكه، من أبيعه حيناً ويبيعني مسالك إلى وصل الشوق باللقاء. هاك اللهاث وأعطني صحراء حقيقية، قد

أجد النبع هناك، أرفض صحارى مصنوعة من رمالٍ مستوردة. أعطوني صحراء فأتلبس بالرمال ولا يخنقني، وكان قيس تائهاً زاهلاً عن العالمين، وكنتُ أستجمع زهوله لأصنع منه حلماً جميلاً رائعاً لأجل عينيك في اليقظة أو في المنام؛ فأنت جميلة في كل مرة يتعلق فيها شوقي بشوقه دون أن يدركه، ولتسرّع بعدها، شد لهاثك إليّ وبمسيرة غمرتنا بالهفة والدوخة غمرتنا بالتيه وخيالات النشوة، لكن لا نملك داخلنا، أعطيناها، أنتِ جميلة عندما تغدو الرؤية مستحيلة تتضاءل الكائنات، تتقلص أقزاماً ملفوفة في قشور البصل تنزلق على تشوُّهها تبقى أنت البدء وقبله ولا أسأل عن الختام نحو النهاية رحلتي إليك. أقول بدء الوصول، هل أصل إليك. فأنت لما عبرت، وفي العبور أتناثر أصنع مني مخلوقاتٍ وهمية، تسرق وتحرق الزمن لتتعلق بأبراجك، مخادعك ولو لا تشم العبير، رؤى مهرجانات تدغدغ أجفانك ترتع على المحيّا الذي أحب، وتلتفتين ألتفت وراء ورائي — الذي بعدك، لأجد العراء، فأسأل مخلوقاتي التي هزمتني، ماذا صنعتُ بك، لقيتُها صامته منكفئة عليّ؛ فهي مني، وأنا انكفأتُ للحظة. لقد حاولتُ أن أعزل الضوء فأنسج من طريقتنا طريقاً واحداً وبينني وبين الشمس ما لا أعلم من أحباب فقدتهم، مقياس الزمن! أحباباً فقدناهم لو يرجعون، هل ترجعين؟

سوء تغذية فكرية تناسلية في العنق والغصن، في قشرة موز، في غطاء تحت إيقاع يسري إليّ يجذبني، أهزّه ينتفخ. انتفخي أيتها الأشياء، تصاعدُ أيها الهول، هل أتصاعد منك معك تحت انسحاق تضائلي، أجدب انعدام الطبيعة ... واه! واه! ... والنغمة مرّت والقبلة فاتت ... ما قدرتُ على استعادة طعم ما مرّ ... هزّيني أيتها الأمواج ... أيها الآه الذي بُرّح به ... استغاث: من ينجد؟ ... انتفاضة ... غضب ... شجون آهاتٍ شهّر بها في أيامهم المشهودة وأيامنا المغدورة ليالينا المغدورة. في تسكّع مفجع يا حبيبة ... ولقد قتلت وأسأل مَنْ؟ وفي اللحظة التي كنتُ أسأل فيها كان الحلم أوسع من أفقي، وأفقي أبحر في رحاب تيهك الذي تعلق بعنفواني وعنفي ... لو تسأليني. لو تتعلقين هياماً، لو تحبّين ما أحببت. لو أكون وباءً في وجوههم ... أفواهاً تبحث عن حطبة في أرض صحراء قفر ... أيها العُراة ... في الجراح التي على عرائنا ... إننا نستجدي سورتنا التي لم نعلم أنها، الكواكب التي لم تكسف ... وجوه الأحبة التي قمطتها أرحام راحلة ... وكنتُ أهدد تحت ما لم يرحل ... كنتُ أغازل شوقي ... يا شوقي هب لي صفصافة جناح قطعاً جاهلي لأطير، كي أغزو عباب التيه في أدمغة مَنْ رحلوا أولئك التعساء، كيف تكون يقظة مَنْ رحلوا، كيف تكون صحوة مَنْ يستفيقون بعد أن هجعوا، لا بريق، لا مهرجانات لا أحلام بالفسيفساء،

وإنما كوكبك يسير في اتساق وانتشاء، جميلة يا سيدي، ارحمني بلأأراها، عفوك يكون فيما لم أره، في تهافُت الأشياء، هذه الأشياء تُذكرني بالأجداد الكرام، واللعنة عليَّ بأن لم أذكرهم؛ فقد كانت الكواكب وكنتُ لا أزال معلقًا، وما زلت يا حبيبتي «دعد أميمة»، أو أي موجة رعناء.

«ودَّع هريرة إن الركب مُرتحل ... وهل تُطيق وداعًا أيها الرجل؟». قطرات وروح في نغمة لم تُمُت، وعيناك يا حبيبتي، وألهث خلف بعد، ولأنني أحببتُ أن أكون بجوارك — ولو بلا عطاء؛ فأنا غريب الدار واللسان. وبعد «أمية» «هند» رفقاُ أيها الأحبة في زمن يخنقنا فيه النيون. خنقَنتي فيه الواجهات، وأصبحت فيه صليباً بلا صلب، أعطوني لحظة كي أثبت لكم أنني جديرٌ بأن تكون، بأن الأحذية الألبسة الخشنة ومواويل الحزن وانتحاب الواد وحنين وسعال وكل الأمراض المعدية بلا تقويم بلا حسابات مضبوطة، اعلموا أننا لا نخضع للضبط، خارج معادلاتكم خارج الكسور والجذور الجرثومية؛ تقولون: التبريعية، ونحن مربعات جراثيم، الأمر هنا بلا ضمانات بالنسبة لنا، وبالنسبة لي فالأمر لا يهم؛ فلقد أعطيتُ نفسي وأعطيت لي ورقة تخلف في تخلف الناس، أحب أن أكون بين أحضانك حبيبتي، ولو أنك هاربة، ولو أنني أُلحق الجدار، لونه برودته وأنت هاربة. دعيني أحكي لك، أحس أن البرد شديد، هل تعلمين؟ وأنت هي ميلاد فرحتهم في خطوات الاقتراب، اقترَب يا شجني في صحراء أبداً صامته، أسمعُ حكايتي؟ ليس فيها تشويق، بلا آهاتٍ حشرات أو تزوير أكره أن أعطيك عواطفني بالمجان؛ فأنت أغلى من بضائع الورود الاصطناعية أو هالات الحبر الملونة، لنقل القلوب المغروسة فيها الرماح الدامية، اسمعي حكايتي، هل تتحملين السماع عن واحدٍ من مخلوقات الكواكب النحاسية، أن نردّد ما تردّده أجهزة الإعلام وأفلاك المخابرات؟ ما أحسه. كلنا سهيل الجياد، غفوة المحنطين، قبل ولادة زمن التحنيط لعبة «الاستخباء» هل «كنا» زيفاً؟ هل كنا ملتقى أحزان؟ لو تنصّتين، لو تستمعين، وإنني أهوى وأهوى العيش في عينيك، وكانت الوحدة القاتلة مأوى، وأحب أن ألقاك ولدى حزن الشوق ألقاك، لا أبارح، هل تتركينني أبارح؟ أميمة ضياء صعلكة جاهلية، حرائق لما بعد الهشيم، وإنني أهواك وألتمسُ فرحتي في القنوات التي تصبُ عندك، وكانت القنوات، فاصنعي مجرى لي، كوني عندها عمقاً وحوافي، كوني عندها أسائلُك أن تستجيبني أن توجدني أن تتربصي. قف، التحفز، الصولة، الألوية المزوّقة، لكم أن تزوقوا. هل تقترب؟ اقتربوا إذن وهذه هواجسنا؛ لسان طويل. بلا تصوّر للنهاية فنحن أصحابها، اقتربوا وفوق الهودج عند العنف على نعومة الجيد حاولتُ أن أكون. يا أميمة أن أكون، هل تقتربين؟

فاقتربي إذن. لستُ من قطع الطريق ولا من جُباة ضرائب الأمير، ولكننا نهوى العشق نهوى أن نتيه، ومن عينيك نرحل يبدأ المسير.

«انفُخ يا مزار ودُقِّي بعده يا طبول»!

بعد رحلة مكدودة، كنتُ أراوغ فيها أشباح ما يدعونه المستحيل، أحاول التسلل ولو من بين أضافره، كنتُ أستعجل فيها انتفاخ الأشياء وتصليب الأعمدة، وعسى أن تقف الدنيا وأصرخ بعدها، أرقص ما أحببتُ من رقصات، وليتناوب عليَّ الصرع والذهول والهستيريا وما اسموه عُصاب الثورة. وأستمرئ هذا الهوس فيحملني إلى المدن التي تشوقت إليَّ لتدميرها، والشوارع التي حلمتُ بوقوفها، والبحار التي حسبتني أحسبها، وكل الطعوم التي رميتها مغموسة في دمي، أراهن بها الحياة، أراهن بها طوابير مغشوشة في انتظار موتٍ مُزِر. زمن التدمير تشنج فيَّ طويلاً، ما عييتُ به، ما قلتُ كان حملاً ثقیلاً ما قلتُ يا أماه هبيني طعم الصبر نكهة أسرة لأفرح به وأداوي الجروح المتنامية، الآن سكنتُ الظل، من قبلُ كان الصخب مدخلي إلى البحر في الحلبة ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وبعد أن أتراهن هل تستطيع تحمُّل ندامة الخسران، أو أن تجلس بعدها تفكر في ماضي الأيام الميتة ومَن يرغب في الموت، وإن كنتُ على علم أن لا موت نهائي ولو بتنفيذ ثلاثين إعداماً، وبكل ما قد تجلجل به المحاكم العسكرية؛ فأسرى العالم يعودون من جديد ممتشقين هوياتهم «أعصاب» ثورة، بلا سماسرة، فهل كنتُ محبوساً أنتظر إشارة الانطلاق، أحقاً كنتُ أراوغ أشباح المستحيل أم إنني وجدتُ البقاء تحت رهبة الأشباح عين المستحيل؟ كانت وجوههم تطاردني أننى حللتُ، وعلى الأرض أقدامى تتنمَّل تدمى، لم حاولتُ الهروب من تهافت الأشياء طردتها، لم صنعتُ من نفسي سماءً من رصاص ولهيباً تحت صقور هذا العالم؟ أرادت أردتُ أن أكون، بلا استطلاات، أو أظل منشوراً على صفحات الجرائد ذات المبيعات المذهلة. لم أراوغ قد؛ إذ أعتقد أن الأمر حقيقة، وأن الجزر أو الطماطم هي وتجدها في الأسواق، وأن حذائي شديد اللمعان، وأن هذا الكتاب الذي أقرأ بين يديَّ أو على الطاولة، وأن نشرة الأخبار في المذياع لها توقيتٌ محدد ما لم يؤخرها الأذان، وما إلى ذلك، مثل جلوس الواحد في المقهى، وشرب الشاي والبيرة، أو عصير الزمهرير، أو بول البغلة الصفراء، ويحس بعد ذلك أنه في حاجة إلى توترٍ قصير النفس فوق «ميني جوب»، وتفكر في أن الماكسي موضة مستحبة، على أن يكون مفتوحاً من الوسط، وهلم، هلم، هلم، هلم انهياراً واندحاراً وارتفاعاً فوق سُحب لا تمطر بقدر ما تتغصص غيظاً ودواراً

بلا انفجارات، مجرد دُوار قد يُبيح نفسه مع خبلٍ سريع، ومع ذاك الذي أريد، وإنّما دوارٌ مني ينتهي هوسي، صداعي، صرعي زوابعي، معانفات دماغي الذي أحمل بلا توقف. لا تُحملوني مسئولية سقوط أو ارتفاع، أقصد شموخ القيم؛ فأنا لحد النبض الأخير، أتساءل إن كنتُ حقًا قد راوغتُ في الظل الأسمر في دربٍ مسدود قبل ذلك، أم أُمي ثكَلتني أم إن الله لن يَمَنَّ عليَّ بالغفران! إنني ضللتُ بعد أن شطَّ المزار في رحلة، كم أموت في روايتها!

بعد رحلة مكدودة يسألني واسع الذكر العالم الحَبْر النحرير البحر: يا بني، قد أسدينا لك النصيح، ونشدنا لك الهداية، وخطبنا لك حسن الأجر والثواب، ولكنك ركبَت نفسك، وامتطيتُ سهوة أهوائك، وصنعتَ ما بدا لك، فانظر إلى سوء الطالع، وماذا بعد سوء المصير، ماذا تُراك تصنع بنفسك بعد أن ...؟

كان ذلك تقريرًا طنَّ في مسمعي مرة، عاودته على لساني مرة، جَرَبْتُ أن أحكَّ أو أفكَّ الكلام، وكان العيُّ في لساني، تلعثمات غير مفهومة، لم يفهمها أحدٌ سوى أنها ذات وقعٍ طنيني، وليس الطنين ما نريد.

قال نديمي: أريد أن أسكر من خمور العالم المعتقة كلها.

قال صاحب: أريد أن أمتلك حساباتٍ خالية.

قال شهواني: أريد أن أمتلك كل جوارِي القصور المدمرة.

وقال وقالوا وقيل وقلنا وقتلتم وقتلت و﴿سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الْبَيْتِ تَجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ والقول ما لم يقله الأولون، بل ما نرغب في قوله، كي يسمعه سدة المقابر المحسوبة حية. ما حلّمت به حبيبتي، ما قاله أطفالنا، كنتُ طفلًا، ونحن نقتلع الأشجار والأعمدة؛ فهذه الشوارع أنفسنا تزفر والأرض خراب، كشف حسابٍ طويل. بلا أسواق أو مزايدات، وكانت المواجهة وسقطنا، ذبَحَتْ أكباد الأطفال روع القاضي الغريب وسبَحْنَا يومها في الدم، ووابل الرصاص مع حُمَى الطلقات وتجدي في الطلقة، ونحن نحرق همًّا كان أن نحرق، حرقنا رجال المظافئ وظلت تشتعل، لكن عروقتنا فصَدَتْ بعد ذلك، لم أفهم الذي حدث سوى أن السماء والأرض معًا استحالتا مقبرة للجثث، وطفقتُ أبحث عن نفسي بين الجثث، والشوارع تغلي بلا تساؤل، تساؤل مكبوت أخفّته البنادق التي وُجّهت إلى صناديق مثقوبة قبل بدء الطلقات، ووجوهنا بيضاء، لكن القلب جمر، ولا تزال تحترق.

وقلتُ: أريد أن أحضن تيهي، أقبض في يدي الريح التي دفَعَتني، لا أستفيق من هوسي، ولو حاصروني بتعلّهم لتعقيلي لأمعنت، لأمعنتُ في جنوني ولبصقتُ على وجوه سادتهم كي أظل محبوسًا في جنوني طليقًا به. وقلتُ أنا لم أراوغ في رحلة هدَّت في العصب

والأعضاء، لكن النَّفس دائم، ولم أراوغ ولم أزايد، والجدران الأربعة أو الخمسة باردة، والطاولة الكرسي القلم السرير الصورة الأسطوانة بقايا كسور غطاء جلستي، السقف البلاط رعدتي، ذاكرتي باردة، هذه الأشياء باردة الآن، تسأل يا جَدِّي الواسع الذكر، ما بالنا، ماذا أصاب الفارس الهُمام، لا فروسية ولا انتصارات ملحمية، لكنه البرد حقًا، ويُقضض عظامي، وأتجمّع على نفسي، فلا صوت يأتي الآن من الخارج، لا يعطيني الخارج الآن شيئًا؛ الأذان مختومة بالصمغ، والصمت الصمت، وبقايا عظام منهوكة على جلسات منهوكة فوق أجيال منهوكة بالرعب والمطاردة، وأنا لم أخسر ولم أربح، لكنهم تاجروا بأعضائي، بيع الضوء واللهب في السوق السوداء، والخارج هو ذاك، والداخل غرفة جدران أربعة تقبض جسدي ودماعي لما برد.

لأننا كنا نهوى العشق — فارحموا أناسًا ماتت هِمَمُهم، فقدوا ما ملكت أيماهم وقلوبهم، وبقوا في ظن وحسب وبنات خالتهما، أردنا أن نعرفَ بكثير منة ذلك غير أن لغويينا حصروا معرفتنا في هاته الكلمات. ونحن بثباتنا وتوقيرنا لهم، تلوكها بعد استراحة قصيرة للألم الخائرة؛ فأنا وأنتم تتكلمون، والنغمة قطرة تنساب من مقلتي، تهوي إلى القاع تجذب مدمعي يا مدمعي هل نجى؟ ما أحبُّ أن يستجيب، فعلت بكم الأشياء وكنتم في جواب أفعال الشرط الميتة، وإتهموني خلال أفعالٍ مُحَنِّطة، أَسْتَنجِدُ بالتي، وكافة صيغ الإلحاح أن توفوا بعهودكم المتكرّر لها، لكن لا بأس فأمامي سيجارة وبقايا كأس، إنه هزء، سخرية، صفاقة، ضحكة بليدة، طريق ودواوير تلهث بلا مسيرة.

لا بأس من الهُراء، زقزقات، سمسرة شفوية، زئير أسود جائعة.

من كل ذلك ماذا نستخلص، تحبون استخلاص النتائج والعبر أوليسيت العبرة بالخواتم الآن الحاضر وغداً يكون الأحياء، هل أنا ميت؟

وكنْتُ أَسْتَدْعِي النغم أَسْتَحْلِفُه بكل الذي لم يجمعنا، بكل الذي تُقَتُّ أن يوثقنا إلى بعضينا، أن يستجيب، وكل في بحار الهوى صارية بلا سفينة وهو المجدف وفي الشوق غرقت، بلعُتْنِي جنيات البحار الهاربة، بلا اصطيد، لا تتركوا جنباتنا وأجسادنا وبدون مهزلة، لأيِّ سهم، لأيِّ طعمٍ من، بدون رخص، غليان في الأدمغة وغلاء، ولو أن الأجسام الجثث — كما تعلمون — رخصت في زمن الرخص، لكن الله أعلم بعاقبة الأمور، ما علينا إذا لم تفهم البقر أو الديدان أو السيدة الحسنة مرّت دون أن تنبس ببنت ابتسامة، وأنا ابتسمتُ، خدعني خدّها الجارح طُرفها طُرفها، أقصد ملامحها البشوشة، قلتُ إنها تريدني. وكان يروم استنطاقي، كيف تُغامر أيها الجاهل في بلاهة الذين لم يعرفوا أنني

في ميلاد كل فجر، ويروم استنطاقي — أمرٌ عليه فأجده قد هيأً دباباته قاذفات جبروته
وسائل قمعه، وأنا باق، وفي حنجرتي صُراخ: إليك يا حبيبتي، ولا تستجيبين، فمن أنت،
هل أكون قد أخطأتُ الطريق، أم إن كلينا نسي أنه أنجب في قارة ذهب عنها رُواء الحقيقة
وغامت في النسيان؟ — وهكذا فقد سافرنا في النسيان شدماً يسكر الواحد بعناق وردة ما
عانقتموها.

مَنْ يُعلم حبيبتي بعشقي لها، مَنْ يُعلم حبيبتي أنني في هواها في مهب الريح، بلا
اعترافٍ ساذج، كي تسخروا مني، ولو اعترفت أضحك بالمجان، أهزأُ بهزئك، رسوباً للقيعان
الفارغة، رسوباً للضحك النتن، رسوباً لزعانف لا تعطي لا تذر، قد تركت نمانة ليس إلا،
من يقتل في مسامّي وأعصابي تاريخ العشق، فأنا أحببتُ أن أعرف ثقل ظلي في هواك —
سماعاً أيها الراقدون، سماعاً أيتها المقابر، قالوا القصور سكن فينا، لم تسكن القصور، هذا
زمن تهديهم القلاع، لكننا كنا في الخرائب ولم نفهم أن اللحظة الخاسرة هي شدو القلعة
المهزومة، وأن النغمة يسري ضوضاؤها المزري. حنين في دفء ليلٍ مهزومة مغدورة،
وهاتي ما عندك يا دفوف؛ فأنا عملتُ بآياتي، سلمتُ في بكرة الحنين، لم يبقَ كما أرادت؛
فلقد زُورت الآيات، ومن هناك تأفف وغفوة، نعم مريض بلا دفء أو حقيقة، اشرب صوتك،
لا داعي أن يشترك معك أحد، أنت لن تفهمني؛ فأنا فاضت كبدي حرقني الشوق للعبور،
سخن الدمع، احترقي يا حبيبة، إنما سهيل الجياد بلا فرسان يجعل العالم متشابهاً،
لا تذكّر لحلبات الفروسية، جنازة على زمن الفروسية في نسيان معتم، أسمع من بعيد
«أخالي» أسمع، ألهث لعله لهلك، إنك تنادين، من قاع الليل تنادين، شعراً نثراً تتحدثين،
تخريفاً يقولون، أي كلام يريدون؛ فلا أذان لسماع ضوضاء الرجال الرجال، أه! الجوف —
وإنني أكاد أسمع أكاد أفرح، قف، إنه الهذيان. تعالَ لتعيش، عِش عِش، اصمت أو انقذف.
وهكذا فأنا أحترق أيتها الحبيبة، وفي شوارع عارية، في مدنٍ بلا أسقف، لستُ عابراً
في العشق — اسقنا بأبي أنت وأمي.

كانت أنفاسي تحبسنِي كي لا أستجمع أنفاس الناس كلهم، في كل مرة أباعد عن
منطقة الإرهاب يشد إحكام الطوق، ما سمعت نجداتي، ما التأمت الجراح. أضمت الشوارع
تحت نعلي وأنتبه لأجذني أمشي حافي القدمين، من أجلك يمشي الناس طراً حفاة الأقدام،
لكنني عارٍ من كل شيء، أستجمع أنفاسهم كي أستبق أحلامي، وأختطف من الهذيان
هزّاته وأصل، والبعد موغل، والأفق المنتفخ أوغل بُعداً، وأنا وأنت، أجري بعد أن قطعتُ
إليك المسافات، لم ينقطع لهاثي، أراد أن يُبعدني، ضلال ما اقترفا لكنهما في نأْيٍ عن لحظة

عناق، وهج قُبلة، وأُحس عند التحقق أين التحقق أنني أسطع يا حزني، يتألق في جبیني القمر، وأضيئي كل الليالي ولا تحتجبي عني ليالي انكماشِي، لا تحجبي الضوء، ولحظتُذِ أقول لا ضوء إلا صوتك أنت. وهذا ضبابٌ كثيف غلفنا، ولا مُنْجِي من الاحتراق عند كل عشية، لكن إلى متى هذا السقوط في التكرار؟ هو يريد قتلي وأريد أن تعلمي أنني أحيأ من أجلك وأن في دمي حياة، وأن الواجهات مطلية بالبهرجة. وأين الظهر يا حزني الأبيض، مع علمي نيسابور بعيدة فقد تعلقتُ بسمائها — ليت بعض الأحبة من هناك يأتون إليَّ — أقيم لهم مهرجانات شوق إلى دربي، تشوقًا إلى عيون حبيبتِي، بقدر ما أقترَب منك أبتعد، أيتها اللقيا، كيف يحصل ذلك؟ إنني مخلوقٌ مهووس بفرحة لا يصادفها مطلقًا ولو أنه كابد من أجلها الأمرين، مخلوق هش يتسكع في الشوارع ناعسة يرجو لقاء يا حزني بعض الأحبة من حبيبة قد تكون ولا تكون!

لو سمعت النجوى من الغيم، ولو همهمةً على البعد، وعبثًا تحاول، نيسابور بعيدة، أسألكم كيف يعيش الواحد بلا جنون، كيف يمتص ريقًا ناشفًا، غير أنه لا يموت لا يموت. وفي عينيك أردت أن تكون مذبحتي، بعد اشتغالي بالشوق، رشدي في الحنين، قبل شيخوختي أنشد الانتحار في عينيك، ولينسرب الدم بعد ذلك ما شاء له، لتصبح الشوارع مجاري دماء والمنعطفات والفواصل الخشبية مآتم يسح منها الدم، ولتسقط بعدها سماء نيسابور، لتكفَّ الدنيا عن أن تكون؛ فعيناك مذبحتي، والحنين إليك مخزون وجودي، فيا أيها العالم لا التيه ولا الربوات المتأكلة من إملاق، ولا جنسي المدبوغ وصوت جبيننا المشروح يكلف — قالوا لبر الأمان، كفى أيتها الضفادع.

وليل نيسابور مقمر. وليل المدن العارية كفنٌ كبير،
فكيف العبور...؟!

فهل كان يلزمني أن أغرق في بحار الشوق وأمتص قطرات الفواصل الخشبية؟ تلفظُني الأمواج والساحات، تعلق بي كل العاهات، أغلي مع غليان البراكين. أكون في ذروة التدمير للزلال، وفي أوج الدمار تتراكم أنقاضِي. نهب الدمار يقولون أنا وعلى حافة كل خراب، لا بأس أيتها الضفادع المسالمة. ما كان النقيق ليُخدرني، تعالَ لترى الأطلال بعدئذٍ، وأسأل مع الشاعر الجاهلي إن كان الأحبة قد عاجوا على الديار وقضوا حاجتهم فيها، ثم إنني في الدمار منسي.

هل كان يلزم أن تنهشني الكلاب، تسلخ جلدي، ويقولون بسخرية هجينة تراشي، يا أرض ابلعي حملك المدبوغ؛ فالأرض أرض والسماء سماء! يا أرضنا السليبية — وأنا الآن محبوس بين أربعة أشباح، فأين الأرض الحقيقية، وأين الرجال الأربعة، وأين هي السماء؟! هل كان يلزمني أن أسلم، وأعلق عند مداخل المهرجانات بهلواناً، ينزف مني الدم دون أن يكف، من مراحيضهم أمتص أعيش أحترق فيك وأحترقك.

هل كان يلزمني أن أجرب الجُر والمَد معلّق ما يزال في عنق الريح المنسية، وأهبط أصعد أهبط أصعد، هل تصعدون — كي أثبت بعد عطش طويل وألم مزمن أن الإنسان أسير وحدته القاتلة، أنها كسير حباته ورقاده وبعثه، أن وحدته ملح حياته.

هل كان يلزمني أن أقع أسير أول نجمة أو غيمة أو دمة، أو دقات طبول، لكي أعرف أن الإنسان حيوانٌ وحيد وبوحدته يعيش، وأن الجدران مهما تكن مزوّقة فهي صمّاء، وأن القبور مهما تكن فهي خرساء، وأن الوجوه وشوارعهم وجكّمهم وأوامرهم، وإنذاراتهم وقمعهم وغازاتهم المسيلة لبولي، لا تزيد على أن تجعل مني حيواناً مهووساً بعنفه وحيداً أعيش بوحدتي القاتلة وتقتلني فيها.

لكن مذبحتي في عينيك أيها الوطن الموت الولادة.

نحن لما تكوّن فينا الجرح

إلى «أمان» التي ستأتي

نحن لما تكوّن فينا الجرح
لم نُعدْ نسبَحُ للقبلة الباردة العابرة
لا ولا عن الجرّارات كذا الزخّافات السحق
لحرث طقوس التآليه
فُتّنا الآية وجئنا نتشَمّم سقمنا في الداء
لم نُعدْ نرحل من تيه لتيه
أو نُمنّي النفس بالقسطاس وتفسير الكتاب المبين
أو نخلف بالأقدام الحافية على الطرق الحامية
رفضنا التوكل وقدّسنا
نبض القبلة ووله التجديف ...
نحن لما رأينا الشيخ المهودود الساعد والعضد
يناعي ويداري ويناجي البَغْيَ الأرض الفاجرة
عدلنا عودًا على بدء مقياس الرؤية صوب القمر
ودندنًا بالأغنية: سفر الطفل إلى الثدي والفجيرة

أيتها الفجيرة

ومن عرائك أرتجي من توتُّرك أنزف بالحياة
لا يقبض تاريخنا الموت
من يموت منكم (آه) أين الرجال؟ (!)
نحن لما ركبنا دبر الأيام وداورنا في المقامرة والسمسرة
حسبنا الخسارة ربِّحاً والربح هدًى للانقطاع
عن المحبَّة البيضاء
لكم التأويل ولي التحويل
أذبنا الفتيل في القنديل
شربنا مُصنا مصصنا في الزيت والخمارة
أي الوعد والوعيد

وبعدنا الطوفان (!)

بعدنا ثغثغة الطفل وسكين انجازار والمارد في دوار أزل
الدم لما سقط رأس الحلاج وقيصر أعتقوا باسم المبادئ عبيدهم صيروا
إلى الجنة في قفز متعالٍ متناوب هاتِ هاتِ يدك صفق معنا اشحذ ديتك
هذه الشوارع أغرقوها تجاه الأضرحة صوب أعشاش ملكة النحل أو
صوب

سفر الريح مُدني بالريح
يا عشقي أين الريح
أين نبض القبله
أين نبض المفجوعين
وإن كنت أراوغ القدم
أراوغ السفالة
أراوغ الآن غوص القدم في الطين
ينكأ في الجرح الطين
وتزوبع يا عشقي عينك حسك روعك
بالهجر يتعرَّج الصدر على القلب الحاني من دفء
حنانيك من يكافئني

نحن لما تكوّن فينا الجرح

لأني وجدتك أخرجتك

من عشق الهجر وهجر العشق وطور قرون

... سماحة فقبليني

استمعوا إلى الأطفال

حكمة العصر

«دينٌ صالح لكل زمان ومكان»

مَنْ يَمُنْ علينا بالعشق

«صالح لكل زمان ومكان»

ومكثتُ في بطن أُمِّي أشهرًا ستّة قبل الإفراج

عن فرعها لأبين

«صالح لكل زمان ومكان»

ودبَّ في السُّقْمُ الجزع الرعب

وقال لي طفلٌ في الثلاثين أنا ميت

«صالح لكل زمان ومكان»

قدّم عسلية العينين، أمر القوادة

«صالح لكل زمان ومكان»

وعندما بيع القطيع في مزاد الخبايا والدعارة

«صالح لكل زمان ومكان»

بكاء العرب على الأحبة والديار

بكاء العاشق والمعشوق

القاتل والمقتول

الرابح والخاسر

الدنيا والدين
رغبتني وانفراج الفخذين
أيها العالم المسخ

«صالح لكل زمان ومكان»

نحن لما زرنا الخَمَّارة المعمورة المهجورة
دغدغة الناي والغدير
ومراحل المعتمد بن عبَّاد
في شفاء الداء بالسُّكَّر والأنواء
لكِ أن توقَّعي يا حسي الأبعد على وتر التوبة والإرجاء
حين فقدناها حين الثكل
حين تُواري الوجه المحبوب
مَنْ يمسك بالدَّنان والقافية
جراب السجعة شهد الدوخة
تستعطف كوثر شهد التوبة والغفران
يا للسخرية!
غبنا وعُدنا إليكم ونعاود النعاس
حين أرقنا النعاس
مَنْ يشتري اليقظة لبلدان النعاس؟!
نحن ننام أَرَقْنَا النعاس
فرحين بما آتانا ربنا من طيبات الرزق
ولنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنات
وبما سنُجزى من غلامٍ وزق
أيها الأطفال هذا زمان الذبح
قدِّموا إليهم أمعاءكم ليُفرغوا فيها إمناءاتهم المرجوعة
لم نعد هنا وإن رُئينا في كل مكان
فما بال الأطفال أبكموا، هذا سؤال!
نحن لما تكوَّن فينا الجرح
ولو أنا نراك كل سوق يا حبيبة

نحن لَمَّا تَكُونُ فينا الجرح

قال المغني الحزين: مَنْ يبحر من أشواقنا ...
... ومن حساب الخبز وثمر الكراء ورفاهية الصيف
خلق مذنّب بالقهر لَمَّا أحكم الجوع
فجاء القهر

راح يراود الجوع عن إحكامه
يسألونك عن القهر

ويبیس المصير

«ماذا تقول لأطفال بذى مرخ
زغب الحواصل لا ماءً ولا شجر»
خلق بلا حس يشد الشفة بالحداء
ويروح إلى الصلاة السكر والمبايعة!
ها نحن أولاء

ها نحن هنا

كرجال الشرطة في كل مكان!
معذرة، نسكر نحشر أنوفنا
في أسواق الفضول، ومن ضربه السياسة ونقول:
«الليل مَوَّال العشاق
مفتاح الشوق والأشواق ...
الليل ... الليل ... الليل ... الليل ... الليل ...»

وفصل الختام يا عشقي

آي من الكلم الحكيم.

انتظروا البقية

عندما لا تنبُت على الجرح وردة

عندما لا تنبُت على الجرح وردة

عندما يعبث بنا الشد، وتستجلي أمامنا الأنواء

وتُسفر الدمامل عن قيحها المدفون فينا

وتتذمّر الكارثة مني فكنا ابتلاء للكارثة

فالألَم يسترق أعضائي ورأسي عندما تُدير الدوار

أتداخل في الجدران تنفلت مني جذوع الأشجار
يسقط ظلي صريع الفيء الخائب
تبكي الدمعة على بللها حين لم تُسَقِّ الأرض البوار
هذه الأرض بوارٌ أخرجوا إليها فنؤسكم معاولكم
ادفعوا برءوسكم المسطولة في أحشائها
لتسمعوا أنينها

ليهمس الحصى في آذانكم ومسامكم
أنكم السقيا أنكم الضرع: أيها التائهون
أيها الوجه الأبيض لي أنت ضرعي
أنت ولادة

النسيان لا يصحو والقذائف لا تبديد
أنت ولادة

الصهد قد لا يحرق وحدائق الزهور البسمة
تشعل فينا ظمأ الصحراء إلى الواحة
هذا عربي تحترق فيه الصحراء اعبروا الحدود
إلى كل مكان

حاملين فجر العين حبات القمح ورحلة القبله
إلى المغارات الذاهلة

عربي تُنسل منه سيرة القافلة والخيال التي
كانت تملك الخيل تملك تحمم منه تنسل عرب الأمجاد
«أيام العرب» ويطير صوابه لَمَّا تنفر منه البسمة ...

كيف يُجدل من اليوم نغم رائق للعيش وتُنسى
ننسى القافلة وسيرة الخيل

أممٌ منهوكة على أممٍ مرعوبة على أممٍ منهوبة
في ذيول خلق حزين

لَمَّا صنعوا الأسطورة علقت بهم الوصمة
تراكمت على أبدانهم حُفر الأوشام
والوشم حزن يا بنية تكاثف الأوشام فجبيعة
أم منهوبة في ذيول طوفانٍ غائص

نحن لَمَّا تَكُونُ فينا الجرح

مشنوقة في كل فجرٍ حائل
مشنوقة في الغصّة الجائرة
وإليكم بقية النبض
إليكم بقية احتجاج الحجر
قبيل الرشد سيلقانا نموت أو نفكك الغاز الرعب
استعدادًا لخبل دائم مزروع فينا بالإدانة!
إليكم بقية النبض
إليكم عيوننا هي السلاسل والأجراس
إليكم دائرة فُلُكنا وصارية بلا فُلُك
إليكم الأنهار خالدين الربح والخسارة
مَنْ يظفر بالرهان صليل سيوف فوق طبول الزحف الآتي
بُعِيد نشوء الجرح هجرة ذاكرتي رعشة العين والخصر
بُعِيد سفر الروح إلى الوجه الأبيض كل القمم بيضاء
تجدد بعث
قلب مبسوط على راحة
وليرحل معي مَنْ يتوق إلى الغمر
فضاء من الزبد والمطر وصحوة الشمس
فأنت غمر
مَنْ يخسر الغمر العظيم
حتى ولو عادت الكلمة استجداء
والقامة ظل صغار والنظرة سيف احتقار
يُبَيِّح دم الأطفال
مَنْ يريح الغمر العظيم؟!
هذا مخلوق جَوَّاب
يخلط الليل بالنهار
قصداً لا نسياناً
دفعاً إلى مدن جديدة
كان الجو بهيجاً، قيل له هذا الليل
لم يفهم الكلام!

قليل له افتترض الأرض هذه الحلقة:
وسادة وزاد
لم يفهم الكلام!
قليل له يلزمك الرقاد فهذا الليل
لم يفهم الكلام!
وحين صار بالشخير نام، يا مسكين نام
كيف ينام الجوّاب؟!
نحن الفقراء
نكظم في الغيض الحقد والغضب
نسأل سورة الأيام هزه الأحلام
لا نعلم للطريق وجهًا ونعلم أننا في الخلف
من قال نحن في القاع من قال، نحن لم نكن
ها أنا ذا الآن أتواصل فمن يستأصل
أواصل فمن يحبو، من يذكرني
معذرة إنني مهووس ببخّات المشاعر، مهووس بالذكرى،
آه! من يسعفني فلا ننسى
من يسعف الطفل المربوك
في حلقة الذكر وسيل الهديان
ثانية ثلاثة ملايين لكم الربح الخسران ولنا الهديان
يا عيني لك هذا الهديان
فمن يسمعنا من يعرفنا!
... اذكّرني أيها الليل، لماذا أحبك أعيش فيك
لماذا لا يهديني القبله من لا يحبني أحب الليل
ونسمع الدعوة والتأبين
لقد رجونا الغفران المبين
وتوهنا الحانات والأرصفة
في انتظار طوفان العناق والمواصلة
أواه من يسمعنا أيها الأحباب؟
اشتاق الوجد وما تم اللقاء

نحن لَمَّا تَكُونُ فينا الجرح

هرب الظل الطفل الثدي كذا الأفياء
ونحن نشحذ ذبحة القارة والعين
لا يفتأ القوم يرددون البسمة
ولا نفتأ ننشد همس العين ولا بحران
دقًا وضربًا بالأيدي وتصفيقًا للهواجس
ولكننا نحلم

ولو بالضحك على الذقون والعانة لا تتم المهزلة
فالفرحة دومًا في الآتي والنصر لا حساب له!
الحس أو الإحساس أو التهويم
ركائز خلق فإننا هنا، كيف نسلخ عنا جبلة التدمير
ما أروع السكر في عينيك!
وتحلم بعدها يا عابثًا بالسنان والسنم
تصدح بالخيم والخرير رب التيه تساقط
وبعد

فاقطفوا ما شاء لكم من خساستي تشويه خلقتي ومراوغاتي
للرؤوس الفارغة المعمرة بقمل العصر
ولكنني آتي

وإلى جزيرة أشتاق إليها وفيها نشتاقي وآتي
قدر العجز جحيم الرغبة هذيان التجديف
والرحاب صدري سفينة والفارس غمامة هذه البحار
ضيقة أعطونا كفارة شعرًا نسخر ساحات
وبالأهزوجة حقيق

أيا أنتِ يا حقيقة

طعام رديء باختصار

سمكٌ نيء بطاطس في المقلاة

حبل هذه الأوراق

هؤلاء الناس يريدون الضحك على دهر التجمع

والمزامير

وأنت ما شأنك، كيف تجابه رقصة الإخفاق والمناشدة

ذاك صوتك تلك الدعوات بقية الصوت
في البطاح في النجود يا عشيرة يا لعنتي القبيلة مفصودة في الجفن وهّاجة
وفي الدماغ أشع منك
لدى خلخلة الحصون أنتشي
طعامي رديء باختصار، سمك بطاطس في المقلاة
حروف منسوخة في كل بوار وسفين
إننا جهلاء لا نعرف زماننا
طيبون صادقون جناح بعوضة في الميزان
مَن يراهن على جناح بعوضة؟!
حتالة ترغي
أُسود تتضور
جيل مكنوز بورم الأحزان الطلل إشارة
انتحبوا بلا سيول
انتحبوا انتحبوا
«لا تبكِنا يا زماننا»
طعام رديء والسّمك النّيء ورشفة الشفة
عوْدًا على حشرات، لِم القتل؟
مَن يُحيينا؟
- تهمدُ الآهة وتستيقظ في الموجهة
تغوص في حور التزويق
معاشًا للمصورين
هيهات يخمد النبع تنطفئ الموجهة
عليّ يتناسل القمل
بحبوحة الصّدأ وقحط الواحد المهجور
عسى الذكري
تمهل لا تُسعف مَن ينجد
في دورة الأيام
دار الدائرون

نحن لَمَّا تَكُونُ فينا الجرح

هيهات يخمد النبع
نحن أناس للسلم
للعراك أم للزمجرة؟
تحت الصحاري القاحلة ينبجس جسر الدوار
تجاه قبائل الضمأ
هذه مدن خواء سعف خواء حكايا بالسوط مع التأجيل حتى في دورتها
لا يغريني الخلق كيف بالأيام؟
كيف بصاعقة الهاوية؟
هذه الدنان فامخروا هذه الزلازل تتابعوا
نحو جزر الحلبات أغرقوا
القارات المحروثة بنخاع السكر والهديل
وأي الحكمة والتأجيل
الطفل أمامي أنا التابوت بداهة وراءه!
كيف يوقن السامعون ولا يموت الناس؟
حسب تأويل الرؤيا وتكدير مياه المستنقعات
يتفاهل المحراث بلا حصاد
ما الداء ما الطريقة يا أحباب؟!
كيف يحبل الدهر ولا ألده؟
كيف يرقى إلى سمع الأجراس دمعك لا أشربه
من كربٍ كمدٍ
كيف ولا أحتسبه؟
كيف لا أمتطي قامتي و«أنسل من جلدي»
جسورًا لدرب الزحف وقمع الوصل
عذب الموسيقى بخيس النغمة
وعلى عيني قامة كونسرتو
على هذب بودا هالة وفي الموصل ناقة
فما لغة البكاء يا حشد النفاية؟!
نصنع نجني البكاء

زمن بين الولادة والحلم

حديث الناس الشوارع والصفقات درب الحزن حب بالبكاء في الموصل
وفي البيضاء ثكالي ویتامی وطريدة
ذاك القاذف أعتقوه أنا المقذوف فيه
أيها الوجه الأبيض لي بحسك أحتار فأحيا
أيها الوجه الأبيض لي أيتها الأكمة أيها الصهد دوماً
في طرفة عين ينسى الناس
وجلدنا جنسنا مدبغة التاريخ
عسانا ننسى ولا ننساک.

